محمد عزالدين التازي

المباءة

رواية


أفريقيا الشرق

محمد عزالذين التازي

المباءة

رواية



أفريقيا الشرق

رقم الايداع القانوني 829 / 88

المباءة

« . . . وإذا رأيتَ أعمى يسير في الظلماء وفي يده فانـوس ، فاعلم أن من وراء سعيه لذة الوصول إلى ساعة المشاهدة . واعلم أنه يرى أكثر مما يسمع ، وأن عينيه تنظران إلى مسافة أبعـد ممـا يُضيء فانوسه ، فما أجمل العمى إذا كان على هذه الحال وما أَعَزَّهُ في هذا العصر.

وإذا رأيتَ رجلاً انقطع عن الكلام وما هو بأخرس ، فاعلم أنه لا يَكُفُّ عن الكلام، فما أَحْوَجَنَا إلى حاسة بها نسمع . . . » .

«ابن ضربان الشرياقي»

هذه الكأس،
تريد أن تطفح ثانية،
وقاسم يريد أن يعود إنساناً،
وهكذا بدأ جنوحه نحو المغيب .

الضريـــح

«هـا أنـذا أنبئـكم عن الإنسـان المتفـوق. إنْ هو إلاَّ ذلك اللَّهَب وذلك الجنون».

«نيتشه ـ هكذا تكلم زرادشت»

أيها الحرف عَلِّمْنِي. طاوعني أيها الإزميل. كُنْ حاداً ولَيِّناً لتعرف طريقك. طريقك في المادة الصلبة البيضاء تحفر فيها أخاديدك ودروبك. أنت أصابعي. أنت يدي وعيني وجسدي أيها الأزميل. أحفر لي طريقاً في الحرف، ومع الحروف وفي دروبها أسير. في مجراك يسير الحرف، يَتَكَوَّن. يُطل ويرى كل شيء في هذه الساحة. هذه حروفي وأنا أُكَوِّنُهَا بالإزميل.

لا تنس أن تحرك الساكن، وتفتح المغلق، وتبدأ ما لم يبدأ، وتقول ما لم يقل، وتُرَوِّضَ لحظة الدهشة التي فيها تنكشف العلاقة بين طرفك الحاد المسنون وبين اللوحة الرخامية البيضاء.

أكتب الشهادة يا أنت يا أصبعي ويدي وعيني. أكتب حروفك بعنف التوحد الشبقي بين المادة وبين لهبك اللامرئي، وأعطني النشوة. أعطني راحة الإحساس بالتكوُّن

والبدء كساعة اللقاح الشجري.

أنت الدم، واللهب، وانغلاق العالم على شِقَّيْن، وأنت الماء في جريانك العذب القاسي، في رحلتك التي فيها أدعوك، وأسمعك، وأحسك قبل أن أراك أيها الإزميل.

احفر باللهب والشهوة والدم. لا تطعن. كن رقيقاً في أنسيابك الأزلي حيث ضاع زمنك، وبقيت أنا في هذه الساحة أشكو من ظلمائي.

يا ماء عيني، أيها الإزميل لا تتوغل ففي اللمسة ما يكفي من الجراح.

قاسم ينظر إلى بياض الرخام، في يده الإزميل وهو يتكىء على ركبةٍ ويرفع أخرى، شبه عار، حافي القدمين. اللوحة الرخامية محمولة فوق محمل خشبي ذي أربع أرجل. وألواح أخرى مسندة إلى الحائط، والحائط ينشر ظِلَّهُ على ثلث الساحة. جسد قاسم في المكان الظلي. هو اختار مكانه هنا. الرأس حليق والقشابة مرفوعة إلى وسطه، والصدر مفتوح يظهر منه الزغب. اليد اليمنى تمسك بالإزميل، واليسرى تتكىء على صفحة اللوح الرخامي وتمنعه من أن يتزحزح. يحفر. يخط حروفه وقدماه مستقرتان على الأرض الزليجية. يحفر وشمه وأخاديده. هذا هو الوشم. الأخاديد التي يخطها على سطح الصلب، ينظر إليها وكأنه ينتظر أن يتفجر منها الدم. وهل للرخام دم؟ يتوقف عن الحفر

ويسوي انحناءته على اللوح. هكذا. هكذا أفضل. يحفر حروفه الكبيرة المائلة ويضع بعضها فوق بعض. هذا هو التوازي. السطر تحت السطر، وإِمَالاَت الحروف، امتداداتها، تكسر هذا التوازي. سيصبح البياض سواد حرف. هذا الحرف المحفور سيطليه سواد الحبر الصيني. الورقة الصغيرة تحت حد اللوحة الرخامية، يضغطها مع المحمل الخشبي كي لا تسقط، وهو لا يقرأها، يعرف ما فيها ولا يريد أن يَسْتَنْسِخ. قاسم ليس نساخاً، تجذبه إمالات الحروف وينجذب معها. يخلق حرفه من أَبْجَدِيات وهيروغليفيات قد تكون غير معروفة. هم جاؤا إليه بالورقة وقالوا وهو عرف ما يريدون.

الألواح الرخامية البيضاء، المسندة إلى الحائط تنتظر. جاؤا وقالوا وقال لا بد من الانتظار. وقالوا الميت لا ينتظر. وقال الموتى ينتظرون أكثر مما ننتظر نحن، وما شُغْل الموتى إذا كان ليس هو الانتظار؟ ضحك. أخذ يتحدث عن انتظار الموتى ويضحك. زمن الانتظار. وماذا سينتظر الموتى؟ ضحكة قاسم جارحة والعيون حوله تتبادل النظرات وهم يتظاهرون بتأييد كلامه كي لا يغضب. والضحكة جريحة وهو يقول الانتظار هو أهم شيء. لا يهم ما سيحدث بعد الانتظار ولكن الإنسان حينما ينتظر، يكون مفعماً بالنوايا. ينوي كل شيء، وقد يجد أو لا يجد. أنا قاسم. المرأة جاءت. انتظرتها وجاءت. قبل أن تأتي شممت رائحة العطر وعرفت أنها سوف تأتي. لكني أفضل الانتظار على المجيء. المجيء نهاية، والانتظار باب مفتوح على كل شيء،

على أي شيء، وربما على لا شيء. الانتظار هو أحسن حالة يعيشها الإنسان.

العيون حوله تتبادل النظرات. التفت نحو صاحب الجلباب الرمادي، والبطن القبة، وقال له:

ـ وأنت، ماذا تنتظر؟

أرتبك صاحب الجلباب ونظر إلى الأرض المبلطة بالزليج على شكل مستطيلات كبيرة.

ـ أنا؟
ـ أنت.
ـ أنتظر...
ـ لا تعرف. أنت لا تنتظر إذن. أو أنك لا تريد أن تقول.

غمز صاحب البذلة العصرية لصاحب الجلباب. وقال لقاسم:

ـ متى نعود؟
ـ بعد أسبوع.
ـ لا تُؤَخرنا.
ـ سأحاول.

والألواح التي تنتظر يجب أن تنتظر. هذه القطط أفضل من لوحاتهم الرخامية البيضاء. قططي أنا. وتلك ألواح الموتى. أغبياء، ولو كان لهم نصيب من الذكاء لفضلوا أن يتركوا شواهد

موتاهم بيضاء، لتقول أشياء أفضل من الاسم وتاريخ الوفاة. يقول بياض الرخامة حكايته الخاصة، أو حكاية الميت التي لم يقلها لأحد، ولكنهم يريدون أن يفاخروا بحروف الرخامة، وبأصل الميت الشريف، وبالجنان التي سيسكنها. والقطط إذا ماتت سأحفر لها حروفاً على رخامات ناصعة بيضاء، وإذا دفنتها سأجعل للقبور شواهد. قططي أنا قال. والقبور قبور، للقطط ولكل الناس.

تبدأ حروفه في الاقتراب والابتعاد.
حرف يقترب.
حرف يأخذ حرفاً آخر من الخلف، وأمامه الحرف.
حرف يميل.
حرف يسيل.
حرف أَشَمٌّ يرفع هامته فوق الحروف.

حرف يشتهي الحرف وحرف هو الإختراق الشبقي المهووس بلذة أَلَمِهِ الدامي.

ها. لم تنته بعد. سأسكب من لهب الإزميل بعض حروفٍ وأنتهي. هذا إسمه. إسمه فوق كل الأسماء. إسمه هو الحي. وهذا إسم الميت تحته وأنا كتبت. الأيام والشهور. الجمعة. السبت. الإثنين. ذو الحجة. رجب. المحرم. والأرقام السنوية صارت حروفاً. قاسم لا يحب الأرقام. يُمِيلُ حروفَها وليقرأها من يشاء. من يقرأ هذه الشواهد؟ الموتى الآخرون؟ هوام الليل

والسكارى الذين يلجأون إلى المقابر؟ أشجار الطَّلْحِ والصُّبَّار؟ عُيونُ البُوم؟ الشرفاء؟ وما لي أنا؟

الأسماء والتواريخ.

ذاكرتهم.

يريدون أن يتذكروا موتاهم. يأتون إليَّ بالكلمات وأنا أَخُطُّها على الرخام. أحياناً أرفض هذا النسخ وأَخُطُّ كلماتي. أنا أكتب وهم يقرأون. تقرأ عيونُ الظلام. تقرأ الدموع. تقرأ الليالي والنهارات. والشمس الناصعة بأشعتها الحارقة تقرأ، وكتابي مفتوح لا يبلله المطر ولا تُبْهِتُ كلماتِه حرارة الشمس. يموتون واحداً بعد الآخر، وكتابي لا يموت. أنا لا أموت. القبب عالية. الأسوار. طريق السيارات. الليل. السكارى. المارة العابرون بالخطى المتعجلة خوفاً من وحشة الطريق. هذا طريق المقبرة، والقبب عالية يسكنها الفراغ. قباب مَنْخُوبَةٌ، جوفاء، فيها الظلام والفراغ والصمت وأصوات تاريخ الموتى. حكاياتهم. موتى ملوك. موتى عبيد. موتى خَوَنَة. موتى حاربوا الفرنسيين. موتى ماتوا من أجل الوطن. موتى أولاد الحرام، ضاجعوا اليهوديات وشربوا ماء الحياة ثم باعوا رؤوس رجال المقاومة للقبعات العسكرية. زمان. زمان كان. هذه هي القبب فيها الأصوات صاخبة و «الفتوح بن دوناس» قال. هذا بَابُه. باب الفتوح. هو فتح الباب وهم أغلقوه خوفاً من اللصوص وعساكر الغزاة. من الباب يخرجون إلى المقبرة، ومنه يدخلون إلى المدينة. وللباب

وَجْهٌ وقفا. ولكن أين وجهه من قفاه؟ أين هو قبر الفتوح وهل جفت يداه من دم أخيه عجيسة؟

القبب.

آه تلك. تبدو بعيدة، عارية، مرفوعة وسط الفراغ. كل هذا الفراغ فراغ وليس فيه سوى القبب الفارغة. ليل القبب يسترجع التراتيل ويَمَلّ. متسولون. يقرأون القرآن مقابل حفنة من التين وكسرة خبز وقطعة نحاسية تلقيها يد متعجرفة من الأعلى لتسقط في يد الدعاء الجاهز المحفوظ. لا دمعة في العين. لا كلمة عطف أو إشفاء. لا رثاء للميت، يكفيه ما قُرِيء عليه من آيات بينات، ويكفيه صبيب الماء الذي بلل تراب القبر الأحمر الجاف. الميت عاش، ثم خرج من باب الفتوح محمولاً على الأكتاف، وترك الأراضي الواسعة في «شراكة» و «الحياينة» للعيون التي تتبادل النظر بخزر وتُعَبِّرُ عن الرغبة في الإسراع وإنهاء هذا المشهد بصبيب الماء. الحفارون حفاة يصبون الماء على التراب وأقدامهم تتوحل. البلغات الزيوانية تبتعد قليلاً كي لا تَتَوَحَّل، والتلاوة تسرع. يسرعون في التلاوة كي يبدأ الانسحاب. ها. تركوه وراحوا. ثم جاؤا يطلبون الشاهدة. سيبنون قبره قالوا. رخامة بيضاء. وهذه هي الورقة، كتبوا عليها الاسم وتاريخ الوفاة. ها. متعجلون قالوا. لا ينتظرون. الميت لا ينتظر.

والقبب،

كم انتظرت وكم رأت من الزوار؟ لم تقل لي أين هو قبر

الفتوح، وأين هو القبر الذي وارى فيه جثة أخيه عجيسة. بعد أن قتله بيديه؟ القبور تهدمت. موتى جدد يُوَارَوْنَ في قبور عتيقة تآكلت فيها العظام. تتحاور الجثة مع الأخرى التي كانت، وتحكي لها حكايتها، تُؤنسها في الظلام وتُبدد عنها الوحشة والانتظار. الميت يأتي إلى هنا للراحة. هو يرتاح وأنتم لا ترتاحون. يكثر اللغط حول اقتسام التركة وتبدأ العداوات، والحروب والدعاوي. ثم تأتون للكتابة على الشاهدة. أسألوا القبب كم انتظرت. إنها تنتظركم. ها هي، متناثرة وسط المقبرة، تسمع اللغط وصراخ أصوات التلاوة، ونعيق البوم المعشش في الشجر. زيتونات تمتص جذورها الماء من تحت القبور. قل لهم أيها الفتوح. أَخْرِجْ يدك الملطخة بدم أخيك من القبر وقل. هذا بَابُكَ يَنْفَتِحُ على المدينة والمقبرة. أنت فتحت الباب وهم أغلقوه، تحاربوا خارجه، ثم غنوا وأطلقوا زخات البارود وزغردت النساء، وبعدها جاء من هدم الباب ثم جاء من أعاد بناءه. أهذا هو الباب الذي عرف البناء والهدم والبناء؟ قل. أنت فتحت الباب وأخوك عجيسة بنى باباً آخر للمدينة. قل لهم. تعالوا أيها الموتى. أدخلوا. عودوا إلى الديار والطرقات وحوانيت البيع والشراء. اشتروا الأبازير والبهارات من سوق العطارين. اشتروا حفنة من الحناء لتضميخ شعور نسائكم، أو تخضيب أَكُفِّهِنَّ وأناملهن. اشتروا التمر من سوق الشماعين. والسمك. آه سمك النهر: البوري والشابل. ها سوق الرصيف. كُلُوا واشربوا. عودوا إلى حياتكم فليس يفصلكم عنها سوى هذا الباب الضيق الذي بناه

الفتوح قاتل أخيه. هذا باب الفتوح مفتوح في وجوهكم، ولن يغلق بعد الآن.

عراة.

عراة يدخلون باب الفتوح. يتسرحون من إسار الزمن ومن الحفرة. صخب سيارات النقل للضواحي والمدن. رواد سينما الأندلس مشدودون إلى ملصقات الأفلام الأمريكية. المتسولون وماسحو الأحذية وباعة الحلويات والأطعمة الجاهزة. تتوقف أقدامهم لحظة عند العتبة ويدخلون. ادخل أنت. هل تتذكر دارك؟ وأنت ما اسمك؟ هل نسيت إسمك؟ والأولاد أو الأحفاد أو سلالة النسل، هل يتذكرون هذه العظام والمحاجر الفارغة؟ جاؤا من أزمانهم. يتحدثون عن الحرب الألمانية، وعن «بوحمارة» والعز واللويز آ مولاي عبد العزيز، وعام البون، والذين هلكوا بالعطش، والأبواب التي كانت تغلق، وأنهار الدماء التي اختلطت بوابل المطر، والغلاء حتى بِيعَ القمح بأوقيتين للمد، وكثرة الأموات وتخريب أطراف المدينة وخلو المداشر وكثرة النهب في القوافل حتى لم يبق إلا الوحوش. لا تسمعوا كلام الموتى. أسمعوا ما يقوله قاسم الورداني. وأنا سأسكت إلى حين.

قاسم مات.

قاسِم عاش.

كنتُ قد خرجتُ في يوم عيد اللحم إلى القبب. هنا في

الضريح لا يوجد دم. لم أرد الدم. كان دمي يتوثب في لحظة دموية ولكن لا سكين ولا ضحية. قالوا العيد الكبير. وقلت آه، عيد اللحم. وأين هو اللحم؟ لا بد من الكبش. كل الكباش ذبحت، والمدينة غرقت في الدم. القبب وحدها نَجَتْ من دمي المهدور في دم الضحية التي لم يختر أن يكونها أي كبش. كلكم، صارت عيونكم دموية، وقرونكم التي أجتثها الساطور ذات لحظة، حين هوى بعنف ونَحَّاهَا بعيداً. جاءت القرون وجمعت القرون من سطول الأزبال وباعتها للقرون التي صنعت منها الأمشاط لتسريح الشعر الذي يحاذي القرون ولا يغطيها. القرون باعت، والقرون اشترت، والقرون صنعت الأمشاط، والقرون مشطت شعورها وتزينت ببهاء الشعر المُسَرَّح كي تخرج إلى شوارع القرون. قرون كباش. والكباش ما زالت تتذكر الدم. دمكم، دمها، دمي الذي توثب في لحظة دموية وصعد إلى قرني. أنا ذو القرنين. ها قرناي. وأنتم ذوو القرون. والكباش سَتَثْأَرُ وتخرج ذات يوم في مظاهرة وهي تحمل السكاكين والسواطير والمناشير والمُدى. يا ذوي القرون، حافظوا على قرونكم واتركوا الكباش في لحظة دمها تراكم.

الدم.

أنا رأيته في القبب. دخلت قبة ورأيت دمي. كان جسدي عارياً إلا من سروال قصير، وقد رأيت الدم يسري في شراييني. رأيت قلبي وهو يضخ. أحسست أن يدي تستطيع أن تضغط على الشريان وتوقف سريان الدم، أو تأخذه إلى عيني حتى أراه وتعيده

إلى مكانه، لتنضم القطرة إلى القطرة، وحتى اللطخة يمكن أن أمسحها في سروالي القصير وأمشي. أرعبني الفخذ، فخذي، رأيت فيه شارعاً للسيارات الذاهبة الآيبة، ازدحاماً لحركة الذهاب والإياب، العبور الذي أحار عيني وأصابني بالدواخ. كل السيارات الذاهبة دم ذاهب، وكل السيارات الآيبة دم آيب. هذا دمي.

نظرت إلى القبب المتناثرة في الخارج وسألتها عن دم الفتوح، وقالت إلى ذاك هو بابه، فيه الدم، دم الحروب التاريخية بين المتناحرين على حكم فاس، وفيه دم الكباش المذبوحة، والقرون والمصارين ورائحة الكبد المشوي، واللحم المعلق على نوافذ البيوت كي يجف مع الهواء، واللحم المقدد المنشور على حبال الغسيل فوق سطوح المنازل. ضحكت وقلت هذا دمي أراه عارياً وهو ما يزال، فأين هو دم القبة التي تغطيني؟ نظرت إلى السقف المقوس ورأيته يحنو علي، صار له قرنان وأنا أشفقت عليه. القرنان متجهان نحو الأسفل، ناتئان، يجرحان فراغ القبة، ولا دم.

والأبواب الأربعة حيرتني. للقبة أربعة أبواب. لم أعرف من أيها عَلَيَّ أن أخرج. ولماذا سأخرج؟ بقيت حتى تعبت. القبور منبثة أمامي. الشواهد. بعضها كتبته بيدي، بإزميلي. رخام وحجارة. نبات شوكي. صبار. قربة ماء الرحمة. ماء الدمعة. دم الماء. قبور الدم. أين هو الدم؟ ها هو في شراييني.

خرج قاسم من أحد أبواب القبة. خطا بين القبور شبه عار.

كان يرتدي سروالاً قصيراً أبيض. الصدر عريض أزغب والزندان قويـان. سمرة عذبة تكتسح البشرة، والخطى ثابتة يدفعها الجسد الناهض الذي ينم عن بنية متماسكة. قرأ بعض الشواهد. توقف. ضحك؟ أخذ دمعة من عينيه ورماها على قبر. توترت ملامح وجهه وبصق على قبر آخر، ثم أشار إليه بيده إشارة بذيئة. توقف أمام قبر وقال له. سأل بعض الأسئلة، رمى القبر بالأسئلة ومضى وهو ينتظر الجواب. حين اقترب من ركامات التراب والحجـارة، رأى الشاهدة مجرد حجر، حجر كبير يشير إلى الـرأس، وحجـر صغير يشير إلى القدمين، وقال لماذا؟ أين الزليج والرخام؟ وضحـك. قال لا يتساوون حتى الممات، حتى في القبور، ونثر بعضـاً من دمعاته.

لا مقرئين ولا سقائين.

كان الناس لا يموتون في يوم العيد، أو كَأَنَّ أهل الموتى لا يدفنونهم في يوم عيد الأضحى. ضحـك قاسـم للسمـاء العـارية والقبب المتناثرة. رمى ضحكته كالقذيفة، ومشى. خرج من باب الفتوح وعاد ليدخل منه. أمام باب الدار رأى الـكبش. الرجـل السمين واقف. بعض الأطفال ينظرون بدهشـة ولا يقتربـون من الكبش. أين هو صاحب الكبش. السـكين لم يأت. لا سكين. الدم نافر يصهل ويسري في العروق. عينا الكبش حمراوان. هذا هو احمرار الدم في العينين. أقترب قاسم. ضحك ضحكته وفتح ذراعيه للهواء. نشر ألوان الكتابة التي على جسده. كتابة زرقـاء على الزندين. خطوط بمُذَابِ الكحل على الصدر. ألوان وطيور

وقطط وثعابين. والحروف التي خطها على جسده. لا أحد يقرأ كتابة قاسم. لا كتابة. قاسم كتب ونفى الكتابة، ولكنه اقترب. كان ينتظر لحظة السكين.

جاء صاحب السكين وذبح.

وقاسم انحنى على الدم. أقترب من النحر وشرب حتى ارتوى. رشف الدم من النحر. عروق الكبش تضخ الدم وقاسم يشرب. يتلذذ. دم في دم. دم يشرب الدم. دم يبدأ وآخر ينتهي، وصار قاسم ذا قرون ناتئة على رأسه تنضاف إليها قرون مرسومة بالأزرق على زنديه وصدره. قاسم رسم القرون ليقرأها أصحاب القرون غير المرئية، قال ذات لحظة للقطط أنا رسمتها لأنهم لا يفهمون بعض عاداتي. أنا كتبت وهم لم يفهموا الكتابة ولذلك رسمت لهم. الكتابة رسم. قد لايكون ما يعنيه الرسم هو ما في الكتابة. الرسم هو اللغة الأولى. وأنا أعود إليها من حين لآخر.

شرب قاسم من الدم وأرتوى. نظر إليه صاحب الكبش، والجزار بدهشة، وتفرق الأطفال. تلطخت يداه ولحيته. قال صاحب الكبش الدار ضيقة ولذلك رأينا أن نذبحه عند الباب، في هذه الوسعة. ولم يرد الجزار الذي كان يسلخ الكبش متعجلاً ليكون حظه من الذبائح أكثر. والرجل فضحنا. مجنون، قال صاحب الكبش. وكان قاسم قد ذهب. فكر في القطط، وحين عاد إلى الضريح لم يجدها. قالوا تسافر إلى الحج. حج القطط هو يوم عيد الأضحى. يحضر الدم واللحم ولا قطط. وحين وجد قططه

قد سافرت، أحس بالغربة، وتوترت أعصابه، كسر بعض الألواح الرخامية، ومشى فوق القبور الزليجية المستطيلة وهو يَشْتُم بكلمات هجائية.

هذا هو يوم الدم.
القطط تحب اللحم.
الدم شبيه بالدم،
والدم في السكين،
والقط يلحس بلسانه حد السكين،
ولسان القط ينجرح،
ويقولون القط سافر إلى الحج.
ذاك يوم الكسكس قد مضى، الجمعة،
وهذا يوم الدم واللحم،
فلماذا قططي تسافر؟
أنا أشتري لها الهبرة والبيفتيك والجيكو،
فلتبق.

قررنا إلغاء حفلة الكسكس، وتعويضها بحفلة اللحم لتظل القطط هنا ولا تسافر إلى الحج.

نحن قاسم الورداني، وقررنا.
أسمعتم؟

ضحك. قرار؟ من أنا؟ هذه مملكتي. أنا مَلِك الموت. ملاك العذارى. ملك الهند والسند والواق واق. ملاك ذو قرون نابتة

على الرأس والعينين والقدمين. صدري ذو قرون، ولكنها مرسومة. صور. أنا أصور قروني للذين لا يرون قرونهم. ولكن القطط لا بد لها من الدم، دمها، ودم الدم. ستشرب الدم. سأسقيها دماً كي تتناسل أكثر. هذا شعب القطط، شعبي أنا، ومعلمي. من هذا الشعب أنا أتعلم الألوان واللغات والأصوات. ألوانه الأبيض والأصفر والأسود، والعيون، والوبر، والعيون الرائية تراني وتعرف ثم تأتي.

ولكنهم جاؤا. في صباح اليوم الثالث من العيد جاؤا يطلبون الشاهدة. بعضهم خلعوا نعالهم عند العَتبة وذوو الأحذية لم يخلعوها. وقفوا في وسط الساحة. وصاح أحدهم:

ـ قاسم.

وقاسم كان في الغرفة. فراشه الصغير فوق قبر زليجي. الغرفة تتوزعها أربعة قبور عتيقة. النقوش الزليجية تقول بعض التواريخ والأسماء، وهو لا يهتم. نسى أسماء الموتى الذين يساكنونه الغرفة. البطانية، وماكينة الغاز التي يُغَلِّي عليها إبريق الشاي، والشمعة، وكسرة الخبز والصحن الصغير الذي وضع فيه بعض حبات من الزيتون الأسود، وهذا كل شيء.

ـ قاسم.

سمع ولم يسمع. عرف أنهم لن يتجرأوا على الاقتراب من الممر. قبالتهم قبة الضريح، بابها خشبي كبير ذو دفتين، وكل دفة مركوزة في الرتاج، والدفتان تنفتحان على بابين صغيرين.

العَتمـة. البخـورة والدربـوز والساعـات الـكبيرة الدقاقــة. لن يقتربوا. أقدامهم لن تبرح الساحة.

ـ فينك آ قاسم؟ اخرج.

نهض من الفراش ودفع الباب الخشبي الواطيء، ثم مشى في الدهليز المظلم الذي تتقاسمه القبور المستطيلة الـزليجية. أطـل عليهم.

ـ ها أنا.

ـ فين الشاهدة؟

قال أحدهم وهو يخزر، ورد عليه قاسم:

ـ الصباح لله. قل صباح الخير.

قال آخر:

ـ صباح الخير آ السي قاسم.

تبسم. ألوانه تنتشر على صدره وذراعيه. هبط قط أسـود من السور متشبثاً بمخالبه ثم ارتمى إلى أرضية الساحة. الظل ينتشر. قال قاسم:

ـ فين الفلوس؟

ـ أعطنا الشاهدة، وهاك الفلوس.

ـ وهذا العيد. فين القديد، فين اللحم، فين الدم؟

تناظروا وأرتبكت نظراتهم. قال أحدهم:

ـ آه. سنأتيك باللحم، ولكن أعطنا الشاهدة.

ـ اللحم ليس لي أنا. أريده للقطط.

أقتربوا من اللوحات الرخامية المسندة إلى الحائط، وأخذوا يقرأون أسماء الموتى. صاح قاسم:

- هذه ليست لكم.
- وأين هي شاهدتنا؟
- ما زال. ما زلت لم أكتبها.
- ومتى؟
- تعالوا غداً.
- نريد بناء قبر الشريف بسرعة. وقد حددنا اليوم.
- ولماذا السرعة؟
- استدعينا الشرفاء والفقهاء لحضور ليلة بناء القبر. هذا قبر شريف.
- عندي قطط شريفة. كل قططي من الشرفاء.

أنسحب أحدهم غاضباً نحو الباب الخارجي للضريح. رآه قاسم وهو يهبط الدرجات الثلاث ويقف على الطريق. يستدير بنظراته نحو الساحة.

- تعرفون: أنا أزوجها. أزوج القطة الشريفة من القط الشريف، والعامية من العامي.

- وكيف تعرفها؟
- الشرفاء علاماتهم واضحة. هي قططي وأنا أعرفها.
- عددها كثير؟

ـ لا أحصيها. أحياناً أخلط القطط، وأرسل الذكور العامية وراء الإناث الشريفات.

ـ لماذا؟

ـ أحب أن أعرف ما سيحدث.

ـ وماذا يحدث؟

ـ هذا شعب، ولا بد أن يختلط. هذا شعبي، فيه العرب والبربر، والهنود، والسلاف.

ـ عندك قطط من كل هذه الأجناس؟

ـ عندي قط واحد هندي، وقطة إيطالية، أنا أحبها، وعندما أناديها تأتي إليّ وتراني. تنظر إليّ بعينين حادتي النظرات.

ـ وحين تموت القطط، هل تصنع لقبورها شواهد؟

ـ أنا لا أدفنها. أتركها ترتاح كما تريد.

ـ أين ترتاح؟

ـ فوق الأرض. أنشرها على السور، تحت الشمس.

ـ قاسم، لا تنس الشاهدة.

ـ تعالوا غداً.

ـ وإذا نسيت؟

ـ سأنس إذا لم تأتوا باللحم للقطط.

أنصرفوا. هبطوا الأدراج ولحقوا بالذي سبقهم، ورآه قاسم وهو يُلَوِّحُ بيديه، ويصرخ، كأنه يشتم، وقال قاسم:

ـ مجنون. هذا الرجل مجنون.

أطلت الشمس وكان انتشار الظل يتراجع. السماء زرقاء صافية. والأسوار. ألوان الزليج لامعة. لا مكان للقبر. كل أرض الساحة مملؤة بالقبور. مستطيلات متساوية المساحة، من الحائط إلى الحائط، من الباب الخارجي إلى باب الضريح، حتى الممر والغرف الصغيرة المعتمة، كلها قبور عتيقة عند رؤوسها الزليجة السوداء التي كتبت عليها الأسماء والتواريخ. لا شواهد. اللوحة السوداء منبثة على السطح الزليجي الملون. صاروا إخوة. جاؤا من القبائل والمدن، من الأزمان، والتصقوا بجوار بعضهم كأن الأرض ستهرب. الشرفاء أشتروا كل هذه القبور. لا قبر هنا لغير الشريف. والشرفاء يتنافسون على أن تكون قبور موتاهم هنا ولا قبر. لا مكان لقبر آخر حتى ولو دفعوا مال قارون. يأتون إلى قاسم ليخط لهم على الشواهد الرخامية ويذهبون بها إلى مقبرة القبب حيث يوارون موتاهم مع عامة الناس، وحين ينظرون إلى هذه القبور الزليجية تصيبهم المسرة ويرغبون في قبر هنا. بعضهم كانوا قد اشتروا لأنفسهم قبوراً وهم أحياء، أوصوا عليها ودفعوا الثمن، واحتفظوا بالوصل مع الأوراق والرسوم العدلية، واليوم لا قبر هنا. لا قبر.

طاوعني أيها الإزميل. ها لهبك المقدس غير مرئي. صِرْ لي يداً بها أزرع حروفي، لتكبر، ويصير اخضرارها بهاءً أبدياً. والحروف غابة، والغابة لا يدخلها المُخَاطِر. احفرْ ولا تخترق. توغلْ قليلاً وأَرِقْ دم هذا البياض الرخامي، وإذا نفذت الحدة وضاع مَضَاؤُك، ولم تعد قادراً على التوغل

فبإصبعي هذا سأحفر كي أزرع غابة كلماتي.

هذا الصباح لك أيها الإزميل.

في المنام رأيتك وأنت تكتب على السماء. كانت سماء زرقاء عارية، رأيتك تملأها بالحروف والكلمات، وتضحك، وتقول أتعبني الحجر والرخام والخشب ولم يتعبني شيء كحفر الحروف على هذه السماء.

صباحك هذا.

ها البياض ينهض أمام عينيك. ها صلابة اللوحة.

ها شياطينك واللهب الناري، لهب الماء، لهب العينين واللسان، لهب كل شيء. أركبه أيها الشيطان، قل له أن يحفر، أن يقتل ويُحيي، أن يموت ويصبح الحرف حياً لا يموت.

إضحك وآبك.
دموعك هي اللهب.
أرضك بيضاء وهذا رخامها
فأين الحرف؟

طاوعني أيها الإزميل. كن نهاري وضوء عيني. كن يدي ولا تتوغل كثيراً حتى لا تحرق هذا الرخام. مِلْ مع الحرف حيث يميل. هو يسبقك وأنت تتبع طريقه. هذا دربك. هذا مجراك فسِرْ فيه وأتبعني.

نلتقي أنا والحرف.

يتبعني

أتبعه

نسير معاً ويدي في يده وهو يقول لي وأنا أقول له .

أُعَرِّيه ،

أغريه ويُغْرِينِي ،

يتعرى وأُغْرِيه بالصمت والكلام ومراودة اللهيب كي يهدأ ويصير الحرف لهيباً وأنا أحترق .

أنظروا .

ها هو عار ويمتنع .

تحرقه ناري وأنا أكتوي بناره وما بيننا لا ينتهي بعد أن زالت دهشتي أمام بهاء الحرف وصرتُ أتبعه ويقودني إلى طريق الغابة وأنا ذلك المُخاطر .

السور المربع .

الباب الخشبي العتيق المرتفع على ثلاثة أدراج .

والباب المقابل هو باب القبة .

والولي جاثم تحت التراب ، فوقه الرخام والدربوز الخشبي والكسوة المطرزة بخيوط الذهب ، حرير أسود وخيوط ذهبية تميل كما يميل الحرف . كتبوا أسماءه وآياته . لا أحد يدخل القبة . لا أحد يخرج منها . ليس هناك سوى الظلام ، وبقايا بخور وساعات دقاقة كبيرة أهداها الملوك للملوك ثم أهداها الملوك إلى قبة

الولي. الدقات لا تتواقت. لكل ساعة زمنها. لليل والنهار تشابههما داخل القبة. الرائحة، والظلام، والصمت الأخضر فوق كل شيء. أرض خضراء مفروشة بالزرابي الخضراء، جدران خضراء تغطيها أثواب خضراء رُسمت عليها أقواس خضراء غامقة الخضرة، ولا يزحزح اخضرارها إلا وَشْيُ الذهب وأقاويل الشرفاء. حتى في داخل القبة، هناك قبور لا تكشف عنها البُسُطُ الخضراء، مستطيلات زليجية دقيقة الزخرف.

قاسم لا يدخل القبة، يمنعونه من دخولها، يقولون غير طاهر، لا يتوضأ، ولا يصلي، لا يغتسل، فكيف يحمل دنسه إلى داخل القبة؟ رجل مدنس. من لا طهارة له لا يدخل حضرة الولي، وقاسم يضحك، ويدعو قططه التي تملأ الساحة وحواشي الأسوار، كأنها تخرج من تحت الأرض. تتسلق أكتافه وصدره وقنة رأسه وهو يضحك ويقول غداً سأدخل قبة الشريف بن الشريف، مولانا وسيدنا وصاحب السر الرباني. سره في إنغلاق الغرفة، ولو فتحوها لنا لرأينا وعرفنا. صاحب النور يقولون، ونوره في عيون القطط، به ترى في الظلام، أو أَنَّ نوره من عيونها، وبه يأسر كل هؤلاء العاشقين، المتظاهرين بالوَلَهِ والجنون، السباقين إلى جواره متوسلين بأمراضهم وعطاياهم وقبور ذويهم. هل هناك سر آخر حتى نطالب بفضحه؟ هل هناك سر آخر؟ يضحك كأنه لا يضحك. بكاؤه ضحكة، وموته ضحكة، والرفض والانصياع والتردد والعزلة وصخب الألوان ضحكة على شفتي قاسم. أسنان قصيرة سوداء رجل في الخمسين، أسنانه

غربت إلى هذا الحد، وعلتها طبقة الكلس. وحين يُعَرِّي صدره وذراعيه وظهره يكشف عن الرسوم والكتابة والألوان العجيبة. قطط. عيون زرقاء. أفاع. جمجمة. ورد. عضو تناسلي. قارورة خمر. تفاحة. عمود فقري لسمكة والرأس ظاهر والعينان لامعتان ومقدمة الفم حادة. وعندما يعري جسده ويرون مخلوقاته الملونة يحتارون، ويسألون من يرسم كل هذا على جسد قاسم؟ من أين تأتيه الألوان؟ من يرسم على ظهره؟ ومتى؟ هل يجلس تحت الشمس عارياً وهم يرسمون كل هذه المخلوقات على صدره وظهره وذراعيه؟ والرجل لا يستطيع أن يرسم لنفسه على ظهره. حاول السي الهاشمي أن يعرف. كان يفاجئه معهم في بعض الأحيان، ويرى السلاسل، وبقايا الطعام، ولكنه حين يظهر يهتاجون ويصرخون ويتغير هدوء الجلسة مع قاسم. وعندما يتراجع السي الهاشمي إلى الساحة، أو إلى باب القبة، يسمع شتائمهم تلاحقه، ثم يتعاطفون في لحظة تشبه البكاء الداخلي الحزين. يصخبون لحظة ويعودون إلى اللغط ونسج تقاطعات كلامية لا تنتهي. يقترب منهم قاسم أكثر. لا يضربونه ولا يتزحزحون عن أماكنهم. يجلس بينهم وهم يضحكون أحياناً أو يعطونه أَكُفَّهُمْ لِيقرأ خطوطها. امتدت إليه كف راعشة وسخة. رآها. ابتسم الرجل صاحب الكف وهو يحرك كتفيه، وعضلات وجهه ترتعش. أمسك قاسم الكف بيده. حدق في خطوطها وقال:

ـ أنت كنت.

يصرخ صاحب الكف.

ـ نعم كنت، في الدار و. . .

ينهره قاسم:

ـ أسكت وأسمع. أسكت. أنت كنت هناك، والآن أنت هنا.

ـ هنا؟

ـ هنا.

ـ البحر؟ أخاف. لا أعرف السباحة. أغرق. أنا في بطن الحوت.

يتأوه. يبكي. يضغط قاسم على يده. يركز نظراته على عينيه. يرتعش صاحب الكف وتنحدر دموعه. يقول له قاسم:

ـ أسكت واسمع ما سأقول لك. سنرى البحر في كفك.

أنظر. هذه نار، والبحر يخاف ويهرب.

ـ نار؟

تتصلب عضلات وجهه، ثم يرق ويغني ويده مفتوحة أمام عيني قاسم:

ـ النار اشتعلت في قلبي.

يضحكون. يعلو صراخ شاب في العشرين وهو يخط على قذارته بأنامله. ترتفع ضحكات النساء من الغرفة المقابلة. ضحكات جنية متقطعة. والرجل صاحب الكف يغني ويغمض عينيه.

ـ اسكت. أنت بغل. لا تعرف معنى النار.

ـ أي نار؟

ـ النار التي هرب من رؤيتها البحر. نار خضراء، بيضاء، فيها الشوك والحجر، وفيها المدافع والرصاص. أنا رأيتها في كفي. والنساء ضيقات العيون. سمراوات، ولكنهن يحترقن. أنا رأيتهن في كفي. أنظر.

يفتح قاسم كفه أمام عيني الرجل صاحب الكف المفتوحة، ويقول له:

ـ أنظر. خذ هذه المرأة.

ـ أين هي؟

ـ ألم ترها؟ في النار تحترق. أنا أعطيك إياها.

ـ هي لا تريدني. تقول أنا مجنون.

ـ أنت بغل. نار وسط الشجر. نار خضراء. الأشجار قصيرة، والدم. في الغابة دم ونار.

ـ الدم؟

ـ في الشمس أنهار الدم.

ـ هذا الليل. نحن في الليل.

ـ الليل في بطن الحوت الذي أكلك.

ينظر قاسم إلى مكان الساعة في يده، ويقول وكأن له ساعة رأى فيها الزمن:

ـ التاسعة والنصف. نحن في النهار. هذا صباح صيفي.

الآخرون لا يسمعون. يمدون أكفهم مفتوحة لبعضهم البعض ويقلدون ما يقوله قاسم، ولا أحد يسمع للآخر. وقاسم حين يوجعه رأسه من كثرة الكلام وصخب الأصوات يصرخ ويقول يكفي الآن، إلى الغد. ويقولون الشاف، الشاف سيذهب. ويبكون ويترجونه. الخطوط الدقيقة التي تتقاطع على كف اليد قالت. قاسم قال ويريد أن يذهب. يسمونه الشاف وهو يضحك ويتراجع إلى غرفته الصغيرة ليضع رأسه على رأس القبر الذي يتقاسمه الغرفة. غرفته أم غرفتي أنا قال. هو هنا قبل أن أكون. أنا كنت وهو كان، ولكنه جاء إلى هنا قبل أن آتي، وهؤلاء الثلاثة الآخرون جيرانه، توافدوا واحداً بعد الآخر. ماذا كان؟ بقالاً أو خرازاً أو حداداً أو تاجر أبازير وبهارات؟ لا يمكن أن يكون الرجل حداداً أو خرازاً. لا يمكن. الفقراء لا يدفنون هنا، فليس لديهم ما يشترون به لأنفسهم قبوراً. أهله لا يأتون إليه ولا يسألون عنه. كل هؤلاء الأربعة لا يأتي إليهم أحد. نسوهم أو ماتوا جميعاً وانتشروا في قبور أخرى ربما في القبب، أو في مقبرة باب الكيسة أو مقبرة سيدي بوبكر ابن العربي. أراضيهم كانت وتقاسموها. لو لم تكن لهذا القبر أرض واسعة خضراء لما كان موجوداً هنا. كل هذه القبور للشرفاء والتجار الذين رحلوا إلى السودان وجاؤا بالذهب. من ذهب الرحلة اشترى القبر، وثمن القبر هنا يساوي أرضاً واسعة خضراء، أو حانوتاً من الديباج والحرير، أو ياقوتة خضراء، أو عمراً أخضر. كل ذلك العمر الأخضر صار قبراً زليجياً لا تحضر فيه المربعات الصغيرة الخضراء إلا داخل الألوان

الأخرى. عمر الرجل الأخضر قضاه في المرض والسفر وعَدّ أوراق النقد، وحبات اللويز، والريالات الحسنية. والرجل مات. اخضرار عمره تحول إلى قبر صغير أخضر، فيه رائحة الخيضور، ورائحة عرق قاسم، ورائحة النعناع الذي يغلي في إبريق الشاي.

ناري اشتعلت وجسدي توحش فوق أرض غريبة تزهر فيها القبور. القبور تأتي ولا تذهب. تبقى في مكانها، ويدي كَلَّتْ وساعدي ينهد. أنحني عليك أيها اللوح. تصلبْ في بياضك الرخامي وأنا سَأَهُدُّك. لا بد أن أشق طريقي، أن تصير لهذه الحروف أجنحة وزهور بيضاء ورياح عاتية. بالجناح يطير الحرف. يصير حمامة. تتجمع الحروف كلها حمائم بيضاء وتطير ثم تعود إلى الشاهدة. اقرأوا حروفي على زرقة السماء وهي تطير وترسم حركتها المائلة في فضاء الضريح وربما تزوغ ولا تعود. تجد لها أعشاشاً في مكان آخر وتقرأها عيون غير عيون الموتى. أنتم لا تقرأون حروفي. أنتم الموتى.

ريح الحروف تتحرك.

ستأخذها بعيداً لتقرأها وهي تتشكل وتتلون.

حروف الألوان والمعاني.

ـ هذه هي حروف المعاني.

يدي أنهدت وصارت واهنة لا تقوى على الحفر بهذا

الإزميل. والإزميل لم تعد رأسه حادة حتى يساعدني على حفر حروفي. كل الحروف التي حفرت ستطير وتسطع في سماء الليل أو تأتي إلى غرفتي وتتعلق بالفراغ. قد تأتي أو لا تأتي. وإذا جاءت ماذا سأقول لها؟ سأنظر إليها بعيني القاسيتين، وأقرأها. سأصبح قارئاً لحروفي، وربما ستعود إلى مكانها على الرخام الصقيل الأبيض.

الشاهدة.

لا شيء يشهد على شيء.

في أية أرض، في أية لحظة من الزمن أو في أي صوت عابر يمكن أن أجد حروفي؟ سأكسر هذه الألواح كي تعود الحروف إليّ. سأكسر الألواح. كسرتها واسترحت. ها الشظايا. والقطط جاءت. سأقذفها بضربة من قدمي. لتذهب إلى سطوح المنازل كي تسرق مصارين الخراف. لتذهب وتتركني أفكر في حروفي. هي التي أخذتها. القطط هي التي بعثرت حروفي فوق سطوح المنازل. الأطفال لَمُّوهَا وذهبوا بها إلى المدارس. الحروف سقطت من أسنان القطط فوق السطوح. أسقطتها كي تخطف المصارين ولحم القديد. دعوني أبكي. يدي وهنت وساعدي أنهد، والرخام تكسر، والإزميل لا يطاوعني.

اشتعلت ناري.

هذه هي النار وأجنحة الحروف تحترق ولا زهور إلا قبور تزهر يا نهاري.

كان قد ضرب القطط. رماها بشظايا الرخام. والقطط ماءت وشحذت مخالبها على الأرض المبلطة بالزليج. تسلقت السور العالي وبعضها وصلت إلى أعلاه وقفزت إلى خارج الضريح، وبعضها سقط، وعاود محاولة الصعود. كل الألوان هي القطط، سوداء وصفراء وبيضاء، مرقطة، عيون خضراء وعيون رمادية، كبيرة وصغيرة، جَدَّاتٌ وأحفاد، ذكور وإناث، حوامل. ولحم القديد لم يأت به الشرفاء أصحاب الشاهدة. والدم على السكين، وسكين الدم جارحة ولذلك تهرب القطط من سوق الجزارين وتفضل التسلل إلى المنازل عبر السطوح.

وقال لا بد من الفراء. لماذا تصلح هذه القطط؟ البرد شديد في ليل الغرفة وأنا لا غطاء لي. فراشي صغير من الحلفاء ولا بد من معطف الفراء. شعر القط دافيء. أنا سأذبحها وأسلخ الجلد وأنشره على أرض هذه الساحة كي ييبس، أصلحه وأنشره تحت الشمس مُمَلَّحاً ثم أغسله وأنشره لييبس مرة أخرى، وبعد ذلك آخذ المقص، السي الهاشمي يعطيني المقص، وأقطع كل جلدة على شكل مستطيل وأخيط المستطيلات لتصير رقعة من الفراء. هذه قططي وأنا حر فيها، وما دامت قد تعلمت كيف تسرق الحروف، فلا بد من الذبح، وفراؤها سيصلح لي، سأخيط منه معطفاً طويلاً. لن أذبح صغار القطط. سأتركها كي تكبر، وترى بعيونها جلود آبائها وأمهاتها على ظهري، وإذا رأتها فلن تسرق حروفي. أنا قاسم الورداني. أسمعوا كلامي. لا بد من الذبح. كل من يسرق الحروف لا بد أن يذبح ويصير جلده فراء حتى لا يعود إلى سرقة

الحروف. لا بد من الذبح.

الشمس.
الأسوار الأربعة متقابلة.
باب الضريح الكبير ولا أحد يخرج منه أو يدخل.

نظر قاسم إلى الألواح الرخامية المسندة إلى الحائط، وإلى الألواح الأخرى الممددة فوق المحمل الخشبي. وفجأة خرج دون أي قرار سابق، وذهب إلى باب الفتوح. ظل فضاء الساحة فارغاً.

معطف الفراء قال،

وبكى،

وهو يمشي في الطريق. الآن رأيت نفسي كيف أصير سفاحاً. هذا أنا، في الدروب السفلى لذاتي التي لا أستطيع أن أراها والآن رأيت. عرفت السفاح فِيّ. هو أراد أن يذبح القطط ويصنع من جلودها المعطف. أراد أن يذبح شعبه. مجنون هذا السفاح. ومن سيعلمه الألوان واللغات والأصوات إذا بقي بدون شعب؟ من سيأتي إليه كي يقول له؟ هو جَوَّعَ القطط، وهي ذهبت تبحث عن رزقها فوق السطوح، وهو اخترع لها التهمة. سرقت الحروف قال. والقطط هي التي تعلمه وتعطيه الحروف. سفاح ومجنون هذا الذي أستيقظ في أعماقك يا قاسم. أقتله. اقتل السفاح قبل أن تنشأ من نسله حكومة السفاحين. ألا تستطيع؟ إذن هاك معطف الفراء الذي من جلد القطط. إلبسه. تدفأ فوبر القط دافىء. كن

وحيداً وتضاءل في زاوية من زوايا هذه المزبلة. لكنك ستموت، ولن تتعلم الأصوات واللغات والألوان. لن يأتي إليك أحد. العجوز الأعرج السي الهاشمي حفر قبره. لم يشتر قبراً هنا ولكنه حفر قبره بيديه خارج الأسوار، وأنت يا قاسم السفاح؟ وهذه النفس ماذا يوجد بداخلها؟ الآن تتفتح الحفرة العميقة التي في دواخلك، وتجعلنا نرى ما بداخلها. نرى كل أفكارك التي تخبئها وتقولها لنفسك. تتعرى ذاتك أمامنا ونعرف من أنت. غداً سنكتشف قاسم المرأة، وقاسم اللص، وقاسم البخيل، وقاسم المريض، وقاسم العاشق، وقاسم الكلب. أهذا أنا؟ أكل هذا في دواخلي وأنا أجهل نفسي؟ أين يرقد كل هؤلاء الأشخاص في أعماقي؟ الآن أكتشف السفاح، وربما سأكتشف اللص أو المريض أو الخائن. سأقتلهم جميعاً. كلما ضبطت واحداً من هؤلاء في نفسي سأقتله، فأنا لا أحب أن يمازحني مثل هؤلاء، ويسكنون في ذاتي ولو للحظة. ولذلك فأقتلهم جميعاً وارتاح.

والآن مَاذَا أشتري، السكين أم اللحم؟ سكين ذبح القطط أم طعام القطط اللحمي؟

مشى بين الدروب. خرج إلى وسعة بين المنازل. عين ماء فائرة. امرأة تحمل لوحاً خشبياً عليه قطع الخبز الدائرية. طربوش أحمر مائل إلى جانب الرأس. ضحكة. عين تطل من فوق السور العلوي لأحد المنازل. سقوف ضاغطة على النفس تغطي الطريق. نار الفرن. وقاد اِسْوَدَّ وجهه واحمرَّ تحت تراقص النيران. صوت متسول يأتي من بعيد. وشوشة طائر في دار سفلية.

نقار النسوان. طفل يجري من رأس الدرب ويختفي مع المنعطف دون أن يرى قاسم وجهه. الأبواب. صفوف من أبـواب البيوت الخشبية، خشبها شخين وعلى كل باب مطرقة من حديد على شكل يد أو عقرب. تتراص الأبواب وسط هذه الدرب المعتمة، المسقفة بسقوف واطئة تكاد تحاذي الرأس. تذكر أنه سيقترب من مكانـه الذي كان فيه. تراجع نحور ورائه. هذا المكان لن يراه. غرفة كريهة تشبه القبر. لم يكن منها يخرج حتى ليطل من الدربوز على السفلي، وصراخ المرأة الزعراء يزعجه وكلماتها السوداء. امرأة زعراء رآها مرة واحدة عندما جـاؤا للسكن في الغرفة الفوقـانية، وظل كل نهار يسمع كلامها الجـارح ولا يراهـا. يسمعهـا تُكَلِّمُ الطربوش الأحمـر وهـي تمسـكه في يدهـا وتنفض عنـه الغبـار، وكلامها مع الطربوش يسترسل، ليتحول إلـى وخـزات في قلـب قاسم. تعير الرجال القاعدين في البيوت كالنساء، وتمتدح زوجها سيد العثماني وهي تتفنن في وصف ما يأتي به إليها من مأكولات. يسمع صوتها واضحاً ويتصور أنها ترفع رأسهـا إلـى فوق، ناحية الغرفة التي يقعد فيها قاسم. والزعراء لا تسكت، وقاسم لم يتذكر كل شيء، ولكنه تذكر أنه قريب من دار الزعراء، ولذلك تراجع نحو ورائه.

هو الآن في الضريح ولن يعود إلى ذلك المكان الذي كان. قاسم كان. وقاسم آخر كائـن الآن. الـذي كان لن يعـود. كان الفرن ووجه الوقاد الفحمي الـذي تـراقص عليه ألسنـة النـار قد ذكراه بأنه قد أقترب من دار الزعراء. رجع وهو يعض على شفتيه

ويحاول أن يتذكر، ويقول بصوت مسموع ما اسمها؟ ما اسمها؟ أنا نسيت ولكن ما اسمها؟ أنا كنت أناديها بالإسم فماذا جرى لي حتى نسيت؟ لماذا أنسى اسمها؟ وأخوها أيضاً نسيت اسمه. هل لأنهم نسوني؟ تمنى أن يلتقي بالزعراء في الطريق ويطلب منها أن تقول له اسمها واسم أخيها. والزعراء ستضحك، وتقول له أشياء جارحة غير الاسم، ثم تعود إلى الدار لتقول لهم أشياء جارحة عني. لا أريد أن ألتقي بهذه الزعراء. أسرع في خطاه وكأنه يهرب خوفاً من توقع لقائها وهو يحترق، يعذبه نسيان ذاكرته للإسم. يستعرض أمام الذاكرة بعض الحروف التي قد يبتدىء بها الإسم. ربيعة؟ رحمة؟ لا. فتيحة؟ فاطمة.؟ لا. نادية؟ نوال؟ آه، شيء قريب من هذا ولكني أضعت الإسم. هل أذهب إلى الدار وأسألها عن اسمها ثم أعود أدراجي إلى الضريح؟ هي كانت قبل الاسم. أنا سميتها. ذبحت لها كبشاً وجاء الضيوف وأكلوا وقلنا عقيقه ابنتي الأولى. كبرت وكنت أُنِيمُهَا في حضني وأسمع لثغتها وأفرح. ما زلت أشم رائحتها. ها رائحتها. لكنها نسيتني وأنا نسيت الإسم.

ولدت وحيداً. أنا بدون عائلة. كانت لي عائلة وضاعت. امرأة وولدان. ولد وبنت. كانت لي دار وضاعت. تهدمت. جاء نسر واختطف الدار إلى الصحراء. الجدران أقتلعت من مكانها والسقف والأرض وراحت معه. أخذ الدار بمنقاره وحطها فوق الجبل، ثم نهش ثديي المرأة، وأكل حبات العيون. والمرأة صارت عمياء، والبنت عمياء، والولد أعمى. الدم. عيونهم

دامية، والبنت أكل النسر فخذيها وثدييها، ثم شق الصدور بمنقاره وأكل القلوب. كبد ابنتي أكله النسر، وقلبها حتى صارت بدون قلب. والنسر ضحك. أرتوى من الدم وحلق مستديراً فوقهم وهم لا يرونه، ثم هوى وهو يضحك وأحرق بسيجارته ساعدي الولد. أخذ يشعل السيجارة ويطفئها على جسده وهو يضع القناع على وجهه. هذا هو النسر المُقَنَّع، والولد جريح ومكدود القوى والنسر يدخن ويسأله بعض الأسئلة، بعد أن خطفه من الدار وأخذه إلى ذلك القبو المظلم.

أرى عيني ذلك النسر.

لو كنت في الدار لفقأَ عينيَّ وأكل قلبي. كنت في السجن مع السجناء، ولكني عدت إلى الدار فوجدت مكانها فارقاً. كانت قد اختفت، وجدت ساحة فارغة وسط البناءات الإدارية، وسكنى با إبراهيم المقابلة لداري. وبا إبراهيم تغير. لم يخرج ولم يخبرني كيف اختفت الدار وأين راحت امرأتي وأولادي. رأيت الباب الخلفي المقابل للدار، الذي أدخل منه إلى المكتب، والساحة المعشوشبة، ومن خلفها الجدران العالية، ولم أر الدار. صرخت أنادي با إبراهيم، وهو الذي كنت أجده أمامي قبل أن أطلبه لقضاء مهمة، ولم يجبني. كان قد نسيني هو الآخر. كلهم نسوني. أصابهم مرض النسيان.

ذلك النسر هو الذي خطف الدار من مكانها. عيناه قاسيتان، فيهما الحقد واشتهاء الدم. هو الذي أخذ كل شيء، المرأة

والأولاد والأثاث. أكل الثلاجة والبوطاغاز والكتب. حروف الكتب أكلها ذلك النسر، ولم يغصّ، ولم يمت. لم تقتله الحروف التي أكل. والبنت نسيت اسمها. نسيت الأسماء. المرأة تزوجتها وأنجبت معها الولد والبنت ونسيت الأسماء. النار ذكرتني. نار الفرن هي التي جعلتني أتذكر أني نسيت. والبنت لم أرها. كبرت. صارت شابة. والولد رماه ذلك النسر في الصحراء، وتركه جريحاً ومحروقاً بالسجائر. والصحراء صحراء وأنا لا أعرف أين يمكن أن ألقاه.

مشى قاسم بين الدروب. توقف، وأخرج النقود التي في جيب السروال. عدها ومضى. هذه نقود الشرفاء، دفعوها من أجل كتابة شاهدة القبر. وقالوا مستعجلين، والميت لا ينتظر، وأنا يدي كَلَّت، والقطط منذ جمعتين لم تعش حفلة الكسكس. لم يعد أحد يأتي بقصعة الكسكس أيام الجمعة للضريح. قصعتان كبيرتان، واحدة للرجال وأخرى للنساء، والسي الهاشمي لا يريد. يقول للناس لا تتعبوا أنفسكم فهم لا يأكلون، يتراشقون باللقم ويخلطون نِعْمة اللهّ بأشيائهم القذرة. ونحن لا نستطيع أن نقترب. أنظف الغرفتين بواسطة خراطيم المياه، ولا أستطيع أن أقترب بالمكنسة، أخاف أن يخنقوني. الخراطيم المائية القوية تجر كل شيء إلى المجاري، وهم أشباه عراة، كل ثيابهم مزقوها. حتى النساء عاريات، ولذلك لا أسمح لقاسم بدخول غرفة النساء. والخبز والماء أضعهما فوق لوح خشبي ذي ذراع طويلة. أُقرب الماء والخبز منهم وأضعه عن اللوح ثم أسحبه.

أخاف إن أنا اقتربت أن يخنقوني. والسلاسل لا تسمح لأحدهم بالاقتراب من الآخر. لو سمحت لهم المسافة بذلك لقتلوا بعضهم. والصراخ والشتائم وكشف العورة. تعالوا لتروا إذا لم تصدقوني. ها أنتم تسمعون من الخارج. لا أستطيع. لا حاجة إلى الكسكس، ويمكن أن تكتفوا بقصعة صغيرة لقاسم وقططه، ولبعض العائلات التي تسكن هنا. هؤلاء مجانين. يصنعون الجبال والحدود والسواقي والأنهار داخل قصعة الكسكس، ويصرخون ويتراشقون باللقم، والقطط هي التي تأكل بقايا القصعات وتمش ما تبقى في العظام. وأنا أجد صعوبة في تنظيف صحن الضريح. الشموع ونقود الصندوق يأخذونها ولا يعطونني إلا القليل. لو كان في الأمر ذبائح فلا بأس. الذبائح لم تعد تأتي. حين تكون ثمة ذبائح فالشرفاء أحفاد الولي لا يأخذون منها. الكل يأكل، حتى القطط تنال نصيبها، واليوم لا ذبائح، فلا حاجة إلى قصعات الكسكس. لا تأتوا بها مرة أخرى.

عند الجزار توقف قاسم. نظر إلى الخراف المعلقة، وإلى قطع اللحم المعروضة على البسطة. تفحصه الجزار بعينيه وعطس، ثم لف طرف شاربه بإصبعه، وابتسم.

- هيه. ماذا تريد؟

ظل قاسم يتأمل قطع اللحم.

- هذه القطعة. ولكن أفرز اللحم من العظم.

أخذ الجزار القطعة وقلّبها بين يديه. وضعها في الميزان.

ـ ثلاثة كيلو ونصف .
ـ أريدها قطعاً صغيرة .
ـ كباب؟ هذه القطعة لا تصلح للكباب .
ـ قطعها قطعاً صغيرة ، قلت لك .

هوى الجزار بالساطور على العظم ، وقطع اللحم . السكين حادة .

ـ العظام ، تحبها في الآخر.
ـ ما زالت لها أسنان؟
ضحك الجزار .
ـ أسنانها كالرحى ، تطحن العظم .
ـ شابة . هنيئاً لك .
ـ فيها الشباب وفيها الشيوخ . فيها كل شيء .
الجزار يضحك .
ـ عشاء الغنم لذيذ .

نظر إليه قاسم وهو يتوقف عن قطع اللحم ويلف طرف شاربه . وقال له :

ـ تحبه نيئاً . والعظام من بعد.
ـ مجنونة ، تأكل اللحم النيءَ؟ أعوذ باللّه .
ـ هذا شغلي وليس شغلك . لُفَّ العظام في ورق واللحم في ورق آخر.

ـ امرأة تأكل اللحم النيء؟

ـ أي امرأة؟
ـ امرأتك. أنت قلت هذا.
ـ وامرأة الجزار ماذا تأكل؟

رفع الجزار سكينه وشرعها في الهواء. أنتصب شاربـاه وأتسعت عيناه. صارت ملامحه أكثر قسوة مما كانت. أعطاه قاسم مائتي درهم كي يهدأ.

ـ ها هي النقود. خذ.
ـ غنم. حرام أن يؤكل نيئاً. حيوانات.
ـ حيوانات؟ هذا شعب. شعبي أنا.

نظر إليه الجزار باستغراب.
ـ مجنون. هل أنت مجنون؟
ـ أنا قاسم. قاسم الورداني. هذا هو اسمي.

أخذ لفتي اللحم والعظم ومشى. قال أنا حاميكم وراعيكم. هذا طعامي لكل الأفواه الصغيرة التي أستوحشت على سطوح المنازل من أجل مصران نتن. الحفلة ستبدأ. ستأتون إلى صحن الضريح من كل السطوح وتأكلون اللحم. لست السفاح. أنا قتلت في ذاتي ذلك السفاح ورميته في الصحراء كي تفترسه النسور. قتلت جزءاً من ذاتي، وحين يستيقظ فيها اللص أو الغادر أو سارق العشق والأحلام، فسأقتله وأرميه في الصحراء. لن يكون له القبر. القبور ضاقت والمقابر امتلأت. لا قبور للقتلة بعد الآن.

قال أنا أطلقتها في باحة الضريح والسطوح وفوق الأسوار.

نَسَّلْتُهَا ورأيت الألوان والعيون الصغيرة تتفتح كي ترى العالم أول مرة. سمعت منها الأصوات واللغات. جعلتها تتوالد وتتكاثر وتنتشر في الأرض. ها وشمها على جلدي. عينا قط فوق الصدر. سوف تتكاثر وتغزو المدينة وتزاحم كل القبور. لا شرفاء بينها ولا عوام. كلها من هذه الأرض. وأنا أقتل السفاح. السفاح أستيقظ في ذاتي وأنا قتلته. أراد أن يسلخ جلودها ويصنع منها معطف الفراء. القطط لا تلعق دماء بعضها. تتوحش. تحارب بالمخالب. تصرخ صرخة امرأة حبلى أو طفل يرى الموت. تفعل كل هذا ولماذا لا تعيش وتأكل وتسافر سفرها فوق السطوح؟ ها أنا آت. آت إلى الضريح وفي يدي ما تشتهيه القطط. سآتي وأعطيها. سأعطيها من مال الشرفاء، من تعب الحروف. ولكن عليها ألاّ تسرق حروفي. ها نحن نتصالح.

صعد قاسم الدرجات الثلاث ودخل الباب الكبير. قبل أن يصل إلى وسط الباحة، كانت القطط قد نزلت من أعالي الأسوار وخرجت من الممرات المؤدية للغرف، وأنزلق بعضها من أعلى قبة الضريح. تجمعت وتوقفت وهي تموء وترى. فتح قاسم لفة اللحم ورمى القطع في الوسط. تخاطفتها القطط وتحاربت. عشرات القطع اللحمية ومئات القطط. رأى الحرب تبدأ ورمى بالعظام ليشغل القطط التي لم تنل من اللحم. كانت تأكل وهو واقف يتفرج.

خرج السي الهاشمي ورأى.

ـ ماذا تفعل يا قاسم؟

ـ الحفلة . عندنا حفلة اللحم . أنظر .

ـ ستصير مسعورة .

ـ مسعورة؟

ـ لو طبختـه أيها المجنون .

ـ وهل يوجد هنا إنسان عاقل؟

ـ أسمع هريرها . سيصيبها السعار .

ـ فرحت باللحم .

ـ انسعرت . سنخاف على أولادنا منها .

ـ جاعت ويجب أن تأكل .

ـ وهل وجد الناس اللحم حتى تعطيه للقطط؟

ـ هذا ليس شأني . لست مسؤولاً عن الناس .

ـ لو خبأت دراهمك ليوم آخر . القطط تعرف كيف تعيش .

ـ ماذا أفعل بالدراهم والقطط جائعة؟ هذا شعبي .

راح السي الهاشمي . القطط توزعت وهي تهر وتتشمم الأرض . لاحق بعضها البعض الآخر . وقاسم يفرح ، وينشر ألوانه حواليه . كل الألوان التي على جسده انتشرت . جاءت رياح عاتية وحركت ألوان قاسم في الساحة .

ألوانُ قططٍ وأُسُودٍ وعقارب ،

صحراء ،

دم ،

سماء شاحبة تغطيها سحب دكناء ،

بحر ،

جدار مهترىء،

غابة قصيرة الأشجار،

عيون مفتوحة كحيلة الأجفان،

فسيفساء وقباب منصوبة في الفراغ،

سيارات،

مدن،

دروب سفلى،

سطوح متشابكة،

والنسر، رسم ألوان النسر على جسده كي لا ينساه، وحين انتفض جسد قاسم نفض معه كل هذه الألوان. والألوان شكلت عالمها على جسد قاسم، وأخذت تعلو في فضاء الباحة وترتفع فوق السطوح والمدينة لتصنع من فضاء الدهشة والإخضرار عيوناً رائية.

راحت القطط.

ازهر الموت.

اخضرت القبة واخضرت القبور.

وها صراخ المجانين لم ينقطع، وصليل السلاسل وحده يتردد مع هذه الأسوار، واليوم راح، والليلة أنقضت، والغد جاء.

في الصباح الباكر جاؤا. كان السي الهاشمي قد أخرج خرطوم المياه ونظف الساحة. وقاسم أخذ ألواحهُ الرخامية إلى زاوية ورتب بعضها فوق بعض. مع بداية الصباح سمع لغط في

الخارج، وحين أطل السي الهاشمي من فوق الأدراج رآهم، وقال لهم لا تدخلوا الساحة. أنتظروا في الخارج. وسيأتي العسس ويجعلونكم تقفون صفاً واحداً طويلاً ومن جاء متأخراً عليه أن يقف في الأخير. معهم الأطفال. هذا نهار الأطفال. الأطفال سيأتون. تباعاً سيأتون وسيذهبون جماعات وقد فرحوا بالطهارة والحلوى ودموع الأنبياء. سنعطيهم دموعاً ولكنها غير حارقة، ليست كالجمر. دموع من تفاح أو حلوى سكرية، سيأكلون ويشربون دموعهم وينسون. سينسى الأطفال كل شيء، ولكنهم حين يكبرون سيظلون دائماً يتذكرون هذا المشهد كلما تَعَرَّوْا ورَأَوْا عضواً من أعضائهم. حتى وإن برىء الجرح سيتذكرون.

أعد السي الهاشمي طستا من الزنك في وسط الساحة، كما صنع إطاراً خشبياً أوقفه في الزاوية، وعليه ستارة كي تستر الطفل وهو في الداخل، ثم نضد بعض الرزم، وفتح باب القبة في انتظار الشموع وقطع النقود.

هذا صباح.

مرة واحدة في العام يأتي هذا الصباح.

في كل عام مرة.

وفي كل مرة يأتي الأطفال في سنواتهم السبع الأولى، وقد يأتي فتيان يأخذهم آباؤهم وعيونهم مفتوحة على الفراغ والفزع يستبد بهم. حالة رعب مصحوبة بغموض سحري. دم. زغاريد.

هتاف. دموع وصرخات. طَبَّالُونَ وغَيَّاطُون. الطست يمتلىء بجلود الأطفال. هذه هي الطهارة. والطائر سيطير. ينظر الطفل إلى سماء الساحة كي يرى الطائر يطير، ويكون المقص قد قطع جلدة من عضو ذكورته فيصرخ وينسى الطائر ويرى الدم.

في هذا الصباح الذي لن يعقبه صباح إلا بعد عام، جاء المقدم ورجال السلطة ورتبوا بعض الأمور مع السي الهاشمي. كان العَسَسُ في الخارج يمارسون عصابهم، يشتمون، يضربون بالهراوات ويخرجون أحزمتهم الجلدية، والصف يتراجع، ويمتد في تراجعه إلى التواءات دروب المدينة السفلى، هبوطاً مع بعض المنحدرات. الشرفاء لم يأتوا. سيأتون فيما بعد. للأطفال هداياهم في يوم الدم هذا. قطرة الماء. ظهرت القطرة المائية على الأرض، ولم تنشفها عين الشمس. قطرة ماء انسكبت من خرطوم السي الهاشمي ولم تنشفها جفافاته وهو ينظف الساحة. تلك القطرة كانت ترى كل شيء. من قطرة الماء تكونت عين رائية. رأت طربوش المقدم الأحمر واعتداده بنفسه، وقاسم الذي لا يكلمه أحد ولا يسأل عن بعض الترتيبات وهو يكلم نفسه، ورأت الطست، وبعض الأطفال الذين أخذوا صفهم عند باب الضريح في هذا الصباح الباكر، ورأت ليلتهم التي لم يناموا فيها، ورأت الخطى التي تتقاطع والأحذية التي تمر بجوارها. رأت قطرةُ الماء كُلَّ ذلك في الساحة، عينها رأت، وانتظرت ساعة الدم.

وسط هرج الساحة ارتفع صراخ الرجال والنساء. كانوا يعلنون عن وجودهم هنا، ويحركون السلاسل كي يسمع لها

ـ ما اسم الولي صاحب هذا الضريح؟

ـ لا أعرف. والله لا أعرف. كل ما أعرف أن العادة جرت بختان الأطفال هنا.

ـ أسأل لنا عن اسم الولي.

ـ حتى ندون ذلك في المحضر.

ـ وهل لا بد من المحضر؟

ـ يجب أن نكتب كل شيء في التقرير. حتى هذه العين التي صارت في كفي ماء.

ـ أي عين؟

ـ أنت لا تستطيع أن تراها الآن. لقد تحولت إلى ماء.

ـ ماء؟

ـ لن تكذب عيناي.

ـ الأفضل أن نحصي عدد المختونين.

نظر الرجل الرسمي إلى يده المبتلة. أخرج منديلاً ومسحها. لكنه رأى العين على الأرض. الأسودُ لامع كأنه يتحرك، يجول في بياض العين، فأنحنى والتقطها مرة أخرى. نظر إليها في كفه، ورأى قطرة ماء تسربت من بين أصابعه وهوت إلى الأرض. ابتعد عن المكان وسأل عن الرجل الواقف عارياً وسط الجماعة، والرسوم الملونة على صدره وظهره وذراعيه، وقالوا هذا قاسم.

عيني أنا هذه.

هذه عين.

أنا صرت عيناً وتركتُ جسدي في القبب، وراء الأسوار.
الجسد الذي ظل هناك،
له رأس،
وعين عوراء.
له الزعانف والأجنحة،
الريش والوبر،
وحاسة السمع التي تخترق الأسوار والقبب،
له الذاكرة،
والقدرة على الغوص والتنفس في الماء،
له سالف الشعر الخروبي الذي به أغري الرجال،
والبشرة الناعمة،
والضحكة.

عين واحدة خرجت من مكانها كي ترى وتعود، والعين صارت ذبابة نهضت من قطرة الماء وطارت. حطت على عرض الجدار، قرب المزولة، وأخذت تراكم من فوق، مكان الرؤية المناسب، وترى طست الزنك وراء الستارة التي وضعها السي الهاشمي في الزاوية.

طاولة صغيرة بيضاء، رُتبتْ فوقها مقصات حادة. التهاليل. زغردات النساء. صليل السلاسل والصراخ. الخطى مرتبكة تغدو وتروح. متى سنبدأ؟ نبدأ الآن. تقدم الطفل الأول وعيناه مفتوحتان ناظرتان إلى مكان الطائر فوق القبة. ولم ير طائراً هناك.

كشفوا عنه وطوقوا ذراعيه ورجليه. فخذاه مفتوحتان. ها. ظهر الطائر. ها هو الطائر الموشوش. سيطير. والطفل أحس بالوخزة، واجتزاء المقص لجلدة ذكورته. صرخ. رأى الدم. أحس بنار الكحول. كان الطفل المُهَيَّأ لنفس العملية يرى ويسمع، وقد رأى الجلدة حين رماها الرجل الأبيض في الطست الفارغ. هذا هو الدم الذي لن ينساه. سينسى هذا الدم، وستذكره في بعض الأوقات. كل هؤلاء الأطفال سيسكن الدم في مكان ما من ذاكراتهم، وكلهم توافدوا واحداً بعد الآخر. رأوا من جانب الستارة الدم، ورأوا الطست الممتليء بالجلدات الصغيرة، وحاولوا أن يضغطوا على ما بين أفخاذهم فلم يقووا على مقاومة الرجل الذي يفتحها بقوة، ويحيطها بذراعيه. والطائر لا يطير. لا طائر حتى يطير. كلهم نظروا إلى القبة ولم يروا أي طائر يطير.

أنتقل صراخ الأطفال إلى خارج الضريح، وارتفع صليل السلاسل. كلهم خرجوا.

أعطوهم الرزم وخرجوا. الآباء فرحوا بالزيت والسكر، والأطفال فرحوا بعلب الحلوى، ونظروا إليها من خلال دموعهم.

قاسم يضاحك الممرض ويقول له:

ـ انتهيت بسرعة.

ـ السرعة أفضل.

ـ كنت أخشى أن تجد من بينهم بنتاً.

ـ وجدت خنثى ورددته.

ـ لماذا؟

ـ ليس لديه ما يقطع المقص.

يضحك قاسم.

ـ خنثى؟

ـ أمه بكت. قالت تريد أن تُدخله في الدين.

ـ قل تريد الزيت والسكر.

ـ قالت جاءت به من النواحي.

ـ وهل لم تكن تعرف؟

ـ قلنا لها وقالت لا تعرف. حلفت وقالت لا تعرف، ولم يكن عندي وقت للكلام.

نظر قاسم إلى الطست والتمعت عيناه. حمله وأبعده إلى مكان قاص. أزال الممرض مريلته البيضاء ورتب المقصات في الحقيبة، وذهب. ظهر السي الهاشمي وأزاح الستارة عن مكانها، وقال لا بد من تنظيف الأرضية مرة أخرى بعدما حملته الخطى من وحل وأوساخ. هذه قبور ولا يجوز الخطو فوقها بأحذية موحلة، وقال له قاسم ليس الآن، من بعد.

الذبابة اختفت، وذباب كثير تجمع فوق الطست الزنكي. كانت الذبابة قد أخذت معها ما أرادت وعادت إلى مكان ذلك الجسد في وسط قبة مِنْ قبب المقبرة. الذبابة صارت عيناً، والعين عادت إلى مكانها. والمرأة حين استرجعت عينها أخذت معها جلدة العضو الذكوري وهبطت تحت الماء. سارت مع الماء وفي الماء، وكان دَربها مظلماً وطريقها يسلك بين المجاري، يعلو

وينحدر، والماء يأخذها نحو الماء ولا ماء.

صارت المرأة ماء،
قطرةَ طَلّ،
حبة مطرية أو دمعة في عين.
المرأة صارت لا شيء،

ثم سارت وراء كل الرجال.
عاد السي الهاشمي إلى الظهور وسط الساحة وهو يقول:

- لم يرموا الشموع.

كان يتحدث كأنه يشتم. قال له قاسم:
- مالك؟

- أخذوا الزيت والسكر ولم يلقوا ولو شمعة واحدة في الصندوق.

- وأنت مالك؟

- لا نصيب لي. حتى الآخرون أخذوا نصيبهم. حصة الزيت والسكر كانت ناقصة.

- كيف عرفت؟

- لا بد أنها ناقصة. هم أخذوا منها نصيبهم. أخذوا نصيبهم وأعطوا الباقي للأطفال.

أطلت القطط من أعالي الأسوار. تراجع السي الهاشمي. هبطت القطط وهي تتربص. أنزلقت على السور وتوقفت على

الأرض وهي تنظر بعيون حادة لامعة. الهرير. تجمعت نظراتها حول مكان الطست. ضحك قاسم. أقتربت مأخوذة نحو الطست وتخاطفت جلود ذكورة الأطفال وهي تهر. أكلتها وظلت تهر، ثم تراجعت وتوزعت فوق سطوح المنازل.

ظل قاسم يضحك. حكى لنفسه نكتة وضحك. نظر إلى الأسوار والأرض الزليجية ذات المستطيلات. هنا قبور وخارج الأسوار قبور أخرى. هذه قبور الشرفاء. نشر ألوانه بعد أن انتفض انتفاضته الجسدية. أَشَعَّ ضوءٌ في عينيه وعاد يبحث عن الإزميل. الطست الزنكي فارغ، وألواح الرخام مسندة إلى الحائط.

أين هي أدوات الكتابة؟

قال سأحفر الرخام بهذا الصليل أو بهذه الضحكات التي تسيل كالنار على فمي، أو سأحفر الرخام بالصمت، وبكل ذكرياتي. سأخط حروف الرخام بعصارة هذا الجسد، وبالدم الذي ينزف من إصبعي السبابة، حتى تراها عيناي. أشعر بالرغبة في التدفق، وفي أن أرى ناري. أرغب في اللهب الذي يخترق صلابة كقهر الأيام القاسية، كافتراس الذاكرة لليالي، كوجع الأضراس، كَتَمَنُّعِ الحقيقة أمام وهْمٍ جاء وذهب، كالأدغال التي تسكن في الخاطر ولا تراها عين، كالدم، كانتفاء الأشياء بعد وجودها، كالثلج فوق أرض جبلية صلبة، هكذا الصلابة التي يخترقها اللهب، لهبي الناري، وهو نار نورانية تشع وتقول وتكتب بالحرف.

سأموت.

موتي أنا لن يأتي قبل أن أَخُطَّ كلَّ هذه الألواح فأرى حروفها، وألواحاً أخرى تنتظر.

القطط غابت. لا عيد يمنعها من الظهور. لا حج. حج القطط يكون في يوم عيد اللحم. اليوم لا عيد، فلماذا غابت القطط؟ الصغار لا تقوى على تسلق السور ولكنها خرجت من باب الضريح. هو رآها. كل القطط تواعدت على مكانها ومضت تلتقي فيه وقاسم لا مكان لموعده إلا مع نفسه. لا يكون الإنسان بغير أن يفتري على نفسه ويعدها بشيء، أو يواعدها في مكان ما. وقاسم نسي الإسم. الأسماء نسيها، ولن يكون له موعد مع الأسماء، أو مع كل ضمير مؤنث غائب يتعدد لتصبح له الأسماء كلها. هِلِّينا. كليوباترا. نفرتيتي. رومي شنايدر. البتول. فاطمة الزهراء. خولة. عنيزة. كلهن قرأ أوراقهن في غرفة مضاءة بأباجورة، فوق مكتب وضعت عليه بعض الملفات والقواميس والجرائد كانت روتيناً يومياً في حياته، يتصفحها ويكتفي بالعناوين والافتتاحيات. يدرك أبعاد الخبر قبل قراءته، ولكنه نسي الأسماء وبقيت له الأشياء. الأشياء قبل الأسماء. وقاسم لا يسمي، لا يمتلك سلطة ابتكار الإسم. كل الأسماء مسبوقة والبئر السحيقة هي التي ابتلعت أسماء قاسم التي نسيها، ولذلك خرج يبحث عن البئر.

هذا باب الفتوح.

القوس.

المدخل والمخرج.

الوجه والقفا.

باب وجهه قفاه.

نسي قاسم اسم البئر. كلمة بئر ضاعت. قال حفرة عميقة مليئة بالماء، يسقي منها الناس. قال سأنزل إليها وأستخرج منها أسمائي التي ضاعت. قال في كل حومة سَوَاقٍ ومجار وجداول صغيرة وعيون ماء. ضاع وسط الدروب ثم عاد إلى الضريح ووقف وسط الساحة يتفقد قططه الغائبة، وعرف أن الحروف معها قد غابت.

إليّ بالمشانق والمزهريات ومواقد الحطب. إليّ بأسِرَّة الدعة والمناغاة الزوجية. أعطوني السيف والميزان وأعطوني الورقة. في الورقة الحرف وأنا تعلمت. تعالوا قبل أن أنفض ألواني وأشجار ربيعي وِغابتي الذهبية. ها ذراعاي توزعاً على أرض يمين وأرض يسار ثم سافرا مع ضوء عيني. أَكُلٌّ هذا والحرف لا يطاوعني؟ أكُلٌّ هذا والرياح السبع تذر حروفي فوق مياه المحيطات؟ والعالم الذي أنفلق إلى شقين، والدم واللهب وطريق الحرف؟ أنا قلت أعطوني السيف والميزان. خذوا الميزان وأعطوني السيف. أعطوني السيف وخذوا الميزان. خذوهما معاً فأنا لم أختر بعد، وحين سأختار سأمتشق حاشيتي وأذهب. لا مكان لي الآن. اليد كَلَّتْ وضوءُ العين قليل والإزميل لم يعد حاداً كما كان، أصبح يضل طريقه ولا يعرف كيف يسير فوق بياض الرخامة

الصلبة ويعلن جبنه حين يتراجع. أنا سأعطيه ناري. سأنفخ فيه من روحي. أنا سأنهض وأعطي الحروف دمي.

ضوء عيني قليل،
نهاري سحابة،

والحروف اختلت وتوزعت ثم تصاحبت وتواعدت ورأت أن تغادر المكان وتتجمع في مكان آخر.

تعاليْ يا حروفي. لَوِّني عينيَّ بأَسْوَدك القاتل. ها عيناي سأحفر عليهما بالإزميل حرفاً من حروفي التي ضاعت. ها جسدي العاري صار غابة، بحراً، وَكْراً للنسور، متاهة، مَشْتَلاً للزهور البرية، عينَا قِط، حرفاً والحروف ضاعت.

السيف هو الحرف.
لا ميزان.

خذوا السيف وأعطوني حروفي كي أضعها في الميزان، أو أصنع منها ميزاناً. هذا الحرف وهو الحي الذي لا يموت. لن تموت حروفي. انسحبوا الآن ودعوني وحيداً.

السجن

«إلـي بالرفـاق. إننـي أطلبهـم مبـدعين. ولا أطلبهـم جثثـاً وقطعاناً ومؤمنين».

«نيتشه ـ هكذا تكلم ز رادشت»

في الصباح الباكر تسللتُ من الفراش وخرجتُ من غرفة النوم على رؤوس أصابعي. أغلقتُ الباب بحذر كي لا أوقظ رقية وذهبت إلى الحمام. رأيت حدقتيَ الزرقاوتين في المرآة وعروق عيني الشديدة الإحمرار. تحسست بيدي الذقن النابت الشعيرات الحادة، وفكرت في أن أحلقها. الولد والبنت في غرفتهما نائمان. لن أوقظها. حتى الكتاب الذي طلبتْ مني أن أشتريه لها من الرباط لن أسألها عن عنوانه. يجب أن تعرف أني غاضب من حديثها معي ليلة البارحة. البنت كبرت وصار لها نهدان متدليان، وعينا بقرة وحشية. أخشى أن يتيه جسدها وتفقده، فنفقدها كما فقدنا أخاها. الولد ضاع، ولا بد أن أتدخل كي لا تفقد نعيمة جسدها.

فرشت لحيتي برغوة الصابون وعيناي تنظران إلى عيني في المرآة. الصداع. المسمار يحفر في رأسي. أخذت موس الحلاقة وحلقت منابت الشارب واللحية، وغسلت بقايا الصابون. الماء البارد أنعشني. ملأت كفي بالماء البارد ووضعته على

الجبهة. أغلقتُ عَلَيَّ باب الحمام حتى لا توقظهم رقرقة الماء من الصنبور. ابتلعت الحنفية الشعيرات وبقيت الحباحب على الجوانب. خرجت إلى الغرفة الأخرى ونزعت المنامة ثم ارتديت القميص والصدار والبذلة، وسويت ربطة العنق دون أن أرى وضعها في المرآة. تحسست مكانها من الياقة بيدي، وانتعلت الحذاء.

ظهر الظلام من إحدى النوافذ. الصباح لم يطلع بعد. سأصل في الوقت المناسب. خرجت من باب الدار وقطعت المسافة العارية التي تؤدي إلى باب المكتب، ووجدت با إبراهيم واقفاً بانتصابته العسكرية.

- صباح الخير.
- صباح الخير. استيقظت في وقتك.
- لم أنم طوال الليلة. خفت أن يأخذني النوم فلا تجدني عند باب المكتب كما طلبت.
- أنت دائماً هكذا. تشتكي من قلة النوم.
- النوم ضروري للصحة آلسي قاسم، ولكن. . .

خطوت خطوة نحو الداخل وهو يتبعني. تصفحت الملفات التي كنت قد أعددتها ليلة البارحة فوق المكتب.

- النوم لا يطيل الأعمار.
- نعم ولكن. . .
- ولكن ماذا؟

ـ الواحد يظل واقفاً طوال الليل والنهار.

ـ أنت تدخل غرفتك في الثامنة مساء.

ـ ولا أرتاح. الشغل هنا لا يجعلني أرتاح.

ـ عندنا وقت للشغل ووقت للراحة.

ـ أخاف أن تغمض عيني وتقع المصيبة.

ضحكت.

ـ مصيبة؟

ـ أنت تعرف أننا . . .

ـ إنهم يغلقون الأبواب جيداً. والمفاتيح في الجيوب.

ـ ومع ذلك أخاف.

ـ لا تخف يا بـا إبراهيم.

ظل ينظر إلي. يتفحصني بعينيه. يراقب حركاتي وانحناءة جسدي على سطح المكتب وأنا أتفقد الملفات. قرأت الأسماء على ظهر كل واحد منها وطالعتني الأرقام بحروف مطبعية كبيرة. فتحت الحقيبة ورتبتها، وتفقدت القلم، والطابع ومطبعه.

ـ قُل للميلودي أن تعد الوجبات كما هي في البرنامج.

ـ . . . . . .

ـ والحراس، راقب هل سيتخلى أحدهم عن أخذ موقعه.

ـ . . . . . .

ـ لا زيارات سرية في غيابي.

ـ . . . . . .

ـ والجرائد كالعادة، للجناح الخاص.

ـ تسافر بالسلامة. ولكن متى ستعود؟

ـ غداً أو بعد غد.

ـ أقصد، يوم الزيارة يثير المشاكل.

ـ يوم الزيارة هو بعد غد. سأكون هنا.

ـ بالسلامة.

ـ لا أريد أن يلعب أحد من ورائي.

ـ ....

ـ أنت تعرف. افتح عينيك جيداً.

ـ ....

ـ لا أحد يغادر موقع الحراسة قبل الوقت.

ـ ....

ـ والوجبات. احذر أن يسرقوا اللحم والخضر. سجناء ويُسرق طعامهم؟

ـ ....

ـ الطعام ضروري للحياة. هنا حمير ينامون ويأكلون، وهنا عقول تشتغل وتفكر.

ـ ....

ـ واحد من أجل قارورة خمر، وواحد من أجل موقف.

ـ ....

كان لا يقول شيئاً. تتقابل عيناي مع عينيه وهو ينظر إلي ويهز رأسه بالموافقة. أغلقت الحقيبة ووضعت المفتاح في جيبي. المفاتيح. مفتاح باب الدار، ومفتاح أدراج المكتب والخزانة،

ومفاتيح السيارة. نظرت إليها في يدي وضحكت. لم يبق من مغلق لم يفتح سوى أسرار الكمين، انفجارات غير مسموعة، وغير متوقعة، والوحشة لن يكون هذا هو طريق الخروج منها. ملايين أشعة الضوء. المسالك المظلمة. ممرات النفس. وأنتم أيها الرجال المحاصرون بالرغبة في البدء تتشوهون بلحظة السقوط في ضياع الحقيقة عبر خطابات مُنَمَّقَة. الشعارات صارت كالأدعية والتراتيل. لماذا لا تُعْلُونَ صوت الحقيقة بالرصاص؟ أهذه هي المفاتيح؟

كانت يد قاسم تعبث بحزمة المفاتيح في يده، يقذفها في الهواء ويتلقاها، وبا إبراهيم ينظر إليه بدهشة. يمسك المفتاح بين أنامله ويتأمله، ثم يخلطه مع غيره ويقذف بالحزمة في الهواء. ملامح متعبة. وجه أزرق، رغم أنه حليق فآثار التعب بادية. القامة منتصبة عليها مظاهر قوة خادعة. الصدر يبدو مُمْتَلِئاً والذراعان قويتين. شعره يتساقط وبوادر الصلع أخذت تظهر. الأسنان تخربت وأسودَّ لونها وعَلَتْهَا طبقة من الكلس. قواطع قصيرة سوداء بينها فراغات وكأنَّ السن يهرب من السن. والابتسامة كأنها الجرح. ابتسامة لها روح، تشبه استيقاظ الأشياء أو بداياتها الأولى. تطفر الإبتسامة على وجه قاسم من حين لآخر، وكأنه يستعيد شيئاً مفقوداً أو يكتشف من أين تبدأ الأشياء. يغضب قاسم ويشتم الحراس والطباخين. يحبونه أو يكرهونه؟ هو يتعالى. يأمر. يصرخ أحياناً. يتودد لبا إبراهيم وجسده المنتصب يشد إليه النظر ويصيب بالذهول. والرجل مشغول بالأوراق،

وبالمفاتيح، والمفاتيح الأخرى التي لا يحتفظ إلاَّ بنسخ منها في خزانة حديدية محكمة الإغلاق، ومفاتيحها في مكان مجهول لا يعرفه سواه. مفاتيحه الخاصة لا أهمية لها. يكرهها. ينساها عادة في مكان ما، في السيارة، فوق المكتب، في جيوب البذلة التي غيَّرها، في الحمام، لكنه منشغل بالمفاتيح الأخرى، الثقيلة، المشدودة إلى بعضها بسلسلة طويلة، والسلسلة ترتبط بحزام جلدي يحيط بوسط الحارس. أهذا هو رجل المفاتيح؟

قاسم قبيلة تضحك،
غابة،
رجل لكل الرياح والعواصف والجسد واقف،
نوارة شوكية،
دم يضحك ضحكاً أسود،
قلب عصفور،
أيد تحفر الصخور وذاكرة منهوشة،
لحظة وداع،
ذاك هو قاسم،
ضَمَّادَة مسقية بالجراح،
هدير في قيعان النفس،
حلم مفتوح على الفرح والجنون،
وحش أو نبي،
سرداب مظلم تسكنه الأوجاع والهزائم والانتصارات.
هذا هو قاسم.

وقال أنظروا إلي عيني حتى أرى في عيونكم ما فيها. تعالوا أتفحص ما في العيون من أسرار وخبايا. لصوص. مُبَلِّغُون. مرتشون. تسرقون طعام السجناء وكل الحانات تفتح أبوابها لكم. نهض عن كرسي المكتب ونظر إلى عيون الحراس كي يرى ما فيها.

أنهم هناك في الجناح الخاص.
أصنامكم التي تعبدون.
تحرصون عليهم أكثر من حرصكم على أرواحكم.
تراقبون لحظات نمو الشعر على اللحى،
وتحاصرون الهمس والكتب والضحكات.
أنظروا إلى جباهكم،
لقد تَخَدَّدَتْ وتغضنت الوجوه من العبوس والتحديق.
قمرهم طالع من وراء القضبان،
أما وجوهكم..
ها. ها. ها.
من يخاف عصفوراً صغيراً واقفاً بين القضبان؟
من يعطيكم النوم إذا لم تتناولوا حصتكم اليومية من الخمر والقمار وأغاني الشيخات؟
تفككتم.
انحلت عظامكم،
حتى الضحكة فَقَدْتُمُوهَا وأنتم تَعُدُّونَ الأبواب والقضبان.
أخشاب جسدية واقفة طول النهار والليل.

أسمع دق الأحذية على الممرات،
وأرى العيون الخزر،
فيها أرى المقايضة بالشياطين وبيع التماسيح بدموعها.
والأسد ماذا قال لكم في النكتة؟
ماذا قال؟
الذئب هو الذي قال.
قولوا ماذا قال،
اخرجوا الآن.

خرجوا جميعاً ودخل با إبراهيم، وشيبات المفرق تتألق كأنها بعث الروح. قاسم ناداه ودخل المكتب. وقف صامتاً، وقال له قاسم:

- أنت الآن عريس.

نظر إليه با إبراهيم باستغراب، وضحك.
- عريس؟ ماذا تقول يا ألسي قاسم؟
- أنت الوجع. أنت العار التي لم تنطفيء.
- أنا؟

تقدم با إبراهيم نحو الكرسي وجلس، أراح جسده ونظر إلى قاسم بتطلع.

- حتى الجدران تحاصرني. تحجز عني الريح والقمر وثرثرات هؤلاء المثقفين الواقعين مثلي في حصار الجدران. احترقت أجسادهم بالكهرباء ولم يقولوا، وها هم يقولون

لي .

ـ اسكت آ السي قاسم . اتفقنا على أن يبقى ذلك سراً .

ضحك قاسم .

ـ أنت تعرف . هل أخبرتُ أحداً غيرك؟

ـ أولاد صغار آ ألسي قاسم .

ـ رجال عاقلون يشغلهم مصير الوطن .

ـ أخشى أن يتراجعوا عن كل شيء .

ـ الجبناء يتراجعون ، وآخرون يأتون إلى هنا أكثر صموداً وحرارة .

ـ عدنا إلى الكلام . ادخل عند أولادك واسترح آ ألسي قاسم .

ـ أولادي؟ كلهم أولادي . ناري لا تنطفيء .

ـ أنت تغيرت منذ أن دخل هؤلاء الأولاد إلى هنا .

ـ لا تقل أولاد .

ـ وأنا أيضاً أعتبرهم أولادي ، ولكنني لا أحب الشجاعة الزائدة عن الحد .

ـ لو كان عندك ولد معهم؟

ـ أولادي أنت تعرف . . .

ـ قلت لك لو كان . . .

ـ لن أفرح . سيرتاح ألسي منير . إرتح يا ألسي قاسم . أرح نفسك .

ـ منير؟ أنا مرتاح . لن أرتاح حتى نرتاح .

الشاي .

ـ آه . الشاي .

ـ يكفيك من شرب القهوة .

ـ أنت تردد كلامي .

ـ لم نعد نتفاهم . أنت لم تعد تفهمني يا بـا إبراهيم .

ـ أفهم كل شيء ، ولكن . . .

أخرج قاسم علبة السجائر من درج المكتب ، وقدم سيجارة لبا إبراهيم .

ـ دخن .

ـ لا . مرة أخرى .

نظر إليه قاسم نظرة آمرة ، وقال :

ـ دخن .

امتدت يده بالسيجارة بإلحاح ، ونهض عن كرسي المكتب ليشعل السيجارة لبا إبراهيم . نفثا سحابتين من دخان رمادي التقتا وامتزجتا ثم صعدتا نحو السقف . خرج با إبراهيم من المكتب وبقي قاسم وحيداً .

في صباح ذلك اليوم عاد . كنا قد انتظرناه وتجنبنا أن نبحث عنه في مراكز الشرطة . عاد مأخوذاً وكأنه مُحَشَّش . لم يُحَيِّ أحداً واستقبل الفراش كأنه يرتاح من تعب نهارات وليال في الجحيم . لم يتكلم . كان يبتسم ، وينظر إلى السقف والجدران . ارتخى

على الفراش والبسمة لا تفارق عينيه، كأنه يقول لنا، أو يتحدانا، أو كأنه يسخر من كل شيء. رقية بكت. وأنا سألته ولم يجب. نعيمة عادت من الكلية واقتربت كي تعانقه فلم يقترب. ابتسم لها ابتسامته الغريبة، وشهقت، صرخت بالبكاء.

رقية قالت أهذا هو منير؟ أهكذا صار؟ وأنا لم أقل. وماذا سأقول؟ والولد منذ أن كبر ودخل الكلية وهو يشتم، وأنا تعبت من الحوارات التي تستمر إلى آخر الليل، والولد لا يكف عن الحديث العنيف الغارق في سحابات الدخان. تَزْرَقُّ حدقتاه وهو يتكلم بيده وعينيه وكأنه يصارع غولاً ويستعجل لحظة الخلاص. أقول له يا منير، اسمع. أنت تفكر بأعصاب، وهذا ما يجعل كثيراً من الجزئيات والمعطيات تغيب عنك. لا أقول ستجدها في الكتب، ولكن مراجعة التاريخ الحديث تستطيع أن تضيء اللحظة الحاضرة. يغضب ويقفز سؤاله الحاسم على شفتيه: كيف نغير هذا الواقع؟

الولد كبر. صار أطول مني. يدخن معي وأعطيه من علبة سجائري. يدعوني قاسم. وحين أقول له قل بابا يبتسم ويقول لي قاسم أحسن. هل تخاف أن تضيع منك أبوتك لنا؟ نعترف بأن واجباتك الأبوية قد أديتها نحونا، ولكنك صديق. دعني أتحرر من عقدة الأب. ويبتسم. ولكنه يغضب ويشتمني أحياناً، وأنا أتحمل، وأقول ما أروع هذه الحرارة في زمن المهادنة والانصياع والتنكر لتاريخ الدم. أقول لنفسي هذه ليست جسارة. هذا أنا

الذي لم أعد أستطيع أن أكونه. وقاسم لن يكون سوى ما كان وما هو كائن، فليكن منير ما يريد.

رقية تبكي، وتقول تخاف عليه. يتأخر في بعض الليالي ولا ننام حتى يعود. يسافر ولا نطمئن حتى يرجع. يكاشفني ويقول لا بد من تقديم طلب الإستقالة. أبي سَجَّان؟ أقول له وماذا سنأكل، وأين سنقيم؟ يضحك ويتحدث عن تاريخ السجون. الباستيل. الحبس القديم في مكناسة الزيتون. المعتقلات السرية. ثم يتحدث عما قرأه في كتاب الأقدام العارية. الحبس القديم أروع نموذج يقول. الظلام والتجويع وقطرات الماء التي تتساقط من السقف. لا أحد يرى الآخر. سجن تحت الأرض، وأعمدة الحجارة، وعظام الموتى ورائحة الجيف. سجن اللاخروج واللاعودة إلى رؤية الضوء. والسجون الأخرى، العمارات المقلوبة تحت الأرض، بطوابقها وممراتها المظلمة. أهذا كل شيء؟ يضحك. يحترق ويريد أن يحرق كل شيء. يحرقني بشتائمه ويضحك ثم يدخل في هذيانات سياسية عن المرحلة ولا يكف عن الكلام. وأنا تعبت.

- اخرج واقرأ اللافتة.
- أية لافتة؟
- التي على الباب.
- أي باب؟
- باب السجن.
- وماذا فيها؟

ـ السجن المدني.

ـ وما في ذلك؟

يضحك منير. يلوح بيديه ويشير لي بسبابته:

ـ أنت؟

أقول له:

ـ أنا مالي؟ قل.

ـ لا تعرف؟

يضحك بصوت عال وهو ينظر إلي. يحس أنه يجرحني. ثم تتحول الضحكات الساخرة إلى إدانة مكشوفة:

ـ تسكن بعائلتك في السجن. ننام ونأكل في السجن. أنت سجان.

أقول له:

ـ هذه سكنى للموظفين.

ـ لا تقل الموظفين. قل...

ـ ماذا؟

ـ أنا قلت لك.

ـ هذه وظيفتي.

ـ يجب أن تستقيل.

ـ وماذا أعمل؟ كيف أعيلكم؟ اشتغلت سبع عشرة سنة ولم أوفر أي شيء.

ـ أنا ونعيمة سنعمل. سنتخرج ونعمل.

ـ وأنا وأمك لا نحب أن نأكل من عرقكما. ستتزوجان وتعيشان حياة أخرى.

ـ نتزوج؟ من يتزوج أو يتنفس الهواء في هذه المزبلة؟

يدخن سيجارة ويشعل أخرى. عيناه تتقدان. الولد صارت له نظرات مرعبة. عيناه تخرجان من مدن نارية وجبال وفجوات للصخور. تصير عيناه قوة خارقة لا تقهر. وهذه الدار كيف نخرج منها وإلى أين نذهب؟ ثلاث غرف صغيرة وحمام ومطبخ، وممشى لنشر الغسيل. على بعد خطوات يوجد الباب الخلفي للمكتب، وقبالته دار با إبراهيم. في الليل تتغير الأشياء. تتفتح بعض الليالي عن نشوة غامرة وفرح طفولي أراه في عيني نعيمة وأحمد، والفرح يتكدر، وتضيع بهجة الاستمتاع بالطعام اللذيذ الذي أعدته رقية. يَتَكَدَّسُونَ في كل مكان، على الأرض، فوق الفرش، فوق مائدة الطعام بعد أن تنظفها نعيمة، بعد أن اجتمعوا حول المائدة وأكلوا بشراهة من طبيخ لحم الغنم. يضحكون. يتحدثون عن الرغبات والمرأة، وعن كل شيء. تمتليء الغرف بدخان السجائر. أحمد يضحك. نعيمة تدخل حمى الكلمات. يصخبون ويخططون بدهشة لخرائط جديدة يتشكل منها العالم. يقعون في إسار التاريخ ويخرجون باستجلاء بعض العلامات. عبد الكريم الخطابي. يذكرون الإسم باعتزاز. بدء التاريخ الحديث يقولون، ثم يقتحمون أسماء أخرى بكثير من الصخب والرغبة في امتلاك الاسم، كأنه تاريخ الشخص أو ذاته، عضو من أعضائه أو عيناه اللتان بهما يبصر. كلهم يرون بعيون الخطابي، عمر بن جلون،

المهدي بن بركة، سعيدة المنبهي، وبعيون المنفيين. شهداء ومنفيون والكلمات تصنع تألقها الساحر، كما تصنع بهجة تاريخ منتزع من زمن الاغتصاب والقتل والخنوع.

أحياناً أشاركهم في بعض الأحاديث. وقد كنت أعترض على خروجهم جماعة، بكل هذا العدد، وأقترح أن يخرجوا على دفعات، خمسة بعد خمسة، وتكون السهرات موزعة على أيام الأسبوع بطريقة عشوائية تحفظاً لكل تفتيش، ولكنهم يعترضون. منير يعترض ويغضب، ثم أرضخ لرغبتهم. نفتح لهم ويخرجون. الحراس يلاحظون كل شيء، ولا يستطيعون أن يعترضوا على أوامر المدير. أذهب بنفسي وأشرف على عملية الخروج. يتسللون تحت الظلام ويدخلون الدار، ثم يعودون في بداية الصباح، بعد أن يفطروا معنا. نسهر جميعاً ورقية تهيء القهوة، لكنها تتوجس. تقول تخاف أن يخرج الخبر عن طريق الحراس، وأنا قاسم، أقول لها ماذا سأخسر بعد الذي خسرت؟

كان يشتمني وأنا أحاول أن أهدئه. يهددني بمغادرة العائلة إذا لم أقدم استقالتي من الوظيفة. ثم خرج ولم يعد. قلنا سافر أو شارك أحد رفاقه فراشه في الحي الجامعي. نعيمة سألت عنه وقالوا لم نره. في الكلية لا يحضر الدروس. وأمه بكت حتى تَقَرَّحَتْ عيناها. غاب الولد وبقيت لي نعيمة وجلسات الصحاب. والصحاب قالوا منير رجل، ولا يمكن أن يكون قد اعتقل إلا إذا كان في أحد المعتقلات السرية. بَدوا مزهوين باختفاء منير. وكلما

سألت أين يمكن أن يكون قد غاب كل هذه المدة يتبادلون النظرات ويبتسمون وكأنهم يعرفون، ثم يتحدث أحدهم عن العواطف التي يجب أن تموت فينا في هذه المرحلة، وأنا أب، رأيت أنامل منير الرقيقة القرمزية وهي تنمو، وكنت أقيس طول قامته القصيرة بقامتي وأفرح عندما يقف بجانبي وتصل قامته إلى كتفي. ولون شعره الذي تغير، كان أقرب إلى الشقرة وهو صغير، ثم اسودَّ وصار فاحماً. والشامة التي على راحة يده اليسرى، رأيتها نقطة صغيرة، كرأس الابرة، وكبرت كما كبر جسنده الصغير الوردي. طالت ساقاه وذراعاه، وصوته تجهور، والأخاديد التي ظهرت على الجبهة. وحين حلق لحيته أول مرة أحسست بنشوة غامرة وقلت صار منير رجلاً. والبنت برز نهداها واستدار وجهها في أنوثة، وهذا ما كان يعوضني عن جسد رقية الذي ترهل وأصبح بارداً كالموت أتردد كثيراً قبل أن أدفن فيه أحزان نهاري. فكيف لا أبكي والولد غاب لا أعرف أين؟

في ذلك الصباح عاد.

طرق الباب بيد راعشة. وجه أصفر وشعر الرأس حليق. العينان مفتوحتان على فراغ، والابتسامة. كان يرتدي لباساً وسخاً من غير ثيابه التي يرتديها، حافي القدمين. وحين دخل وقف في وسط الدار كأنه لا يعرفنا ولا يعرف الطريق إلى غرفته. أمه بكت. ولما أخذته إلى الحمام رأت القمل يسرح على عنقه وصدره. رأت الحروق. كل جسده حروق، دوائر صغيرة تنتشر بالعشرات على باطن الذراع والصدر والبطن وجانبي الفخذين. دخلت الحمام

ورأيت جسده الهزيل العاري، ورأيت الحروق. عشرات السجائر أطفئت على جسده. وأثار التعذيب واضحة على جلد فخديه المسلوخ. وهو ينظر بعيداً عنا ويبتسم، عيناه تنظران إلى شيء في الفراغ كأنه لا يرانا. سألته ولم يقل. لم يتكلم. أعطيته سيجارة فتأملها وابتسم، وقَرَّبَها من فمه. أشعلتها له فأخذ يدخن وينظر إلى فراغ غرفة الحمام. أدخلته أمه إلى الحوض المليء بالماء الساخن فارتعش وابتسم وهو ينظر إلى الدموع في عيني. تركتها تغسل جسده وخرجت إلى الصالون. جلست أدخن ودموع حارة تنهمر على خدي.

جاء با إبراهيم ورأى كل شيء. والولد لم يعرفه. لم يبادله التحية، وحين مَدَّ له با إبراهيم يده للمصافحة ظلت ممدودة والولد لم يمد يده ليصافحه، وكان يبتسم لفراغ الغرفة. رأى با إبراهيم الحروق وآثار التعذيب، ودموعي.

ـ ألسي قاسم، كن رجلاً.

صحوت.

ـ آه، أنا؟

ـ أنت رأيت الموت في الهند الصينية، ولم تبك.

ـ أنا؟ آه.

ـ الرجل رجل.

ـ أخذوه وشوهوا جسده. أنظر.

ـ رأيت ولكن . . .

ـ الولد ضاع.

ـ سيشفى، وهذا الحال أفضل من حال آخر.

ـ لو عرفت؟ لو عرفت أين كان.

ـ وماذا كنت تستطيع أن تفعل؟

ـ كنت سأحاول تخليصه.

ـ لست أكبر منهم. أَعْطُوه لحماً مشوياً ليأكل، ويسترجع صحته.

كان يغمض عينيه كي يرى أشياءه الخاصة التي تغيبها عنه رؤيتنا ورؤية أشياء الغرفة، وعندما يفتحهما تظهر الابتسامة، ووجهه المنتفخ الأصفر، وشعر الرأس الحليق، ثم يعود إلى رؤية المجهول. تتغير الابتسامة وتغيب عيناه فيغمضهما.

جاءت رقية بصحن اللحم المشوي، وقدمت له كأساً من الحليب. لم ينظر جهة الكأس. أنهضه با إبراهيم وأسند ظهره بالوسادة. أخذ يشرب والحليب يسيل على جانبي فمه، وكأنه ينصاع لأمر يخالف رغبته. وحين وضعت في حجره صحن اللحم لم ينظر إليه. قالت له كُلْ، وهي تداري دموعها. أخرج يده من تحت البطانية وأخذ يتناول قطع اللحم ببطء شديد ويَضَعُهَا في فمه. يمضغها كالعلك، وهو ينظر إلينا. تمتد يده وتأخذ القطعة دون أن ينظر إلى الصحن. وعندما تتقابل عيناي مع عينيه يبتسم ابتسامته المحيرة. لم أعرف هل يسخر منا بهذه الابتسامة، أم يعزينا، أم يؤكد إصراره وثبات الأفكار التي يحمل، أم أنه كان مأخوذاً إلى عالم آخر، وله يبتسم.

جلست بجواره وقلت له قل يا منير، قل لي. وظل ينظر إلي ويبتسم. كشفت عن فخذيه ورأيت جلده المسلوخ واللحم الذي تَهَرَّأَ وحروق السجائر التي تنتشر في كل مكان. لم يحرك ساقيه. البسمة معلقة في الفراغ. خرجت إلى المكتب وكَلَّمْتُ الطبيب بالهاتف وطلبت منه أن يأتي. وحين جاء ورأى كل شيء قال لي:

- يحتاج إلى بعض الفيتامينات لاستنهاض قوته البدنية.

قلت له:

- والجروح؟

- لا تخف. ستشفى.

- والابتسامة؟ أرأيته كيف يبتسم؟

- سيتكيف مع الضوء، ومعكم، بالتدريج. وسيصير وديعاً وهادئاً.

- كيف؟

- أقصد...

- ماذا؟

- سيتغلب على الصدمة، ولكن بالتدريج.

- ما طبيعة هذه الصدمة؟

- أنا أتكلم في حدود اختصاصي. عاينت الجروح والحروق، ولون عينيه، وضغط الدم. يبدو أنه تعرض لصدمة حادة.

- قل للتعذيب.

- قد يكون ذلك.
- أريد تقريراً طبياً حول حالته الصحية.
- وماذا ستفعل بالتقرير؟
- قلت لك أريده.
- سأعود من بعد، ومعي بعض أدوات الكشف، وأكتب لك التقرير.

استدعيت طبيباً آخر وقال لي نفس الكلام. ثم جئت بمصور وألتقط صوراً عديدة لليدين المحروقتين، والحروق التي على السرة والإليتين، وجروح الفخذين. وحين يشع ضوء آلة التصوير تتوهج ابتسامة منير ويكشف عن أسنانه الناصعة البيضاء. مع كل إشعاعة للضوء يبتسم وتتسع عيناه وهو ينظر إلى الفراغ.

نعيمة لم تبك. لم تذر دمعة واحدة. صار وجهها صلباً وملامحها قاسية. لم تجب عن أسئلتي ولم تعبر عن أي شيء تجاه حالة منير، وحالتنا أنا وأمها. حتى أمها لم تكن تحادثها أو تحاول أن تخفف عنها أو تقدم أي تفسير لما يمكن أن يكون قد حدث لمنير. في الليلة الأولى لعودته لم تنم. قضينا الليلة بجواره نثرثر أنا ورقية، وهي سألته، وحين ذهبنا إلى غرفة النوم مع إشراقة الصباح، ظلت جالسة بجواره بثياب الخروج. لم تغير ملابسها، ثم خرجت إلى الكلية دون أن تنام. أستوقفتها بباب الدار طلبت منها ألاَّ تقول لأحد. تنصلت مني وخرجت دون رد.

عادت بعد ساعتين، ورمت الكتب على الفراش. دخلت غرفته. تعلقت عيناها بعينيه. ظلا ينظران لبعضهما وهو يبْتسم.

مدت له يدها كي تصافحه. لم يحرك يده. ظلت تستحثه بنظراتها ويده لا تتحرك تحت الغطاء. لامست شعره الحليق الذي أخذ ينمو بغزارة وداعبت بأناملها خده وعنقه وهدهدت رأسه. عيناهما تلتقيان ولا تفترقان. ثم مدت له يدها مرة أخرى. لم يحرك يده نحو يدها. ملامحها حزينة وقاسية، وهو يخرج يده ببطء، ويدها مفتوحة. صافحته، وأمسك يدها وهو يبتسم. ضغط على يدها بعنف. تألمت دون أن تظهر ألمها. لمست ظاهر يده بيدها اليسرى، وفكت يدها من يده وهو يبتسم، ثم عاد لينظر إلى الفراغ.

أنهضته ودخلت معه إلى الحمام، ثم أعادته وهو يمشي ببطء وقد تورد وجهه من أثر الماء الساخن، وهي تسنده من ذراعه وتخطو معه. وفي الليل جاء الرفاق ورأوا منير. نظروا إلى بعضهم وقالوا إنهم لم يشهدوا مثل هذا التعذيب. منير عنيف ولا شك أنه كان مستفزاً ومتمنعاً وقاسياً معهم، ولذلك شوهوه. قالوها بكل بساطة، وكأن تشويه منير لا يعنيني، أو كأنه سيخرج من هذا التشويه ليعود منير الذي كان. وبدأوا أحاديثهم التي لا تنتهي، ومنير ينظر إلى فراغه ويبتسم، دون أن يقوى على الكلام.

ظلت نعيمة تنام معه في الغرفة، تشعل له السجائر وتطعمه، تأخذه إلى الحمام، وظل هكذا دون أن يتكلم أو يقول أي شيء.

رتبت كل الوثائق والأدوات في الحقيبة، وأعطيت الوصية لبا إبراهيم. ها هي مفاتيح السيارة. مفاتيح الأبواب المتراصة في جيوبهم. قال لي با إبراهيم:

ـ مع السلامة.

صعدت السيارة وأدرت المحرك. ظل واقفاً بجوار النافذة ينظر إلي.

ـ لا تخف على منير. إنه كابني.

كانت هذه هي المرة الأولى التي أسافر فيها وأتركه على حالته. قلت لبا إبراهيم:

ـ قل لها أن تعطيه الدواء.

ـ لا تتأخر.

ـ قلت لك سأعود غداً أو بعد غد.

ـ يوم الزيارة يثير المشاكل. وأنت تعرف. . .

تحركت بالسيارة بعد تشغيل المحرك لمدة وخرجت من الباب الخلفي. رأيت يد با إبراهيم تشير إلي. وأنطلقت إلى الطريق الطويلة الخالية من السيارات في هذا الصباح الباكر. ضوء السماء الأزرق يتفتح ويسري في أطراف الفضاء، والزرقة الغامقة تتفتح أكثر. الأشجار تستيقظ، والبراري الواسعة تنتشر إلى ما وراء الجبل. السيارة تنهب الطريق وبرنامج الإذاعة الصباحي يقدم بعض الأخبار والطرف والأغاني.

في الرباط شربت قهوة في أول مقهى صادفني، ودخنت بعض السجائر. قرأت عناوين الصحف التي وضعها البائع على المائدة. الساعة الثامنة. شربت قهوة أخرى وقلت لا بد من مزيد من السجائر كي يهدأ هذا الرأس. كنت أراود ذلك المسمار الذي

يحفر في رأسي. ثم نهضت وقدت السيارة نحو الإدارة المركزية وعرضت الملفات وبدأ الشغل.

انقضى النهار وتأجلت دراسة بعض الملفات إلى صباح الغد. أخرجت الحقيبة من السيارة بعد أن توقفت عند باب فندق الرياح الأربع، وخطوت على الممر الضيق الذي علقت على جانبيه صور سياحية رديئة. تعودت أن أنام في هذا الفندق كلما جئت إلى الرباط. بسيط وهادىء واسمه يسحرني: الرياح الأربع. الرجل جالس أمام المكتب ولوحة المفاتيح. أعطيته الأوراق وأعطاني مفتاح الغرفة. صعدت إليها وألقيت بالحقيبة على الفراش. غسلت وجهي ونظرت إلى قطرات الماء وهي تنحدر على الجبهة نحو العنق. أخذت الفوطة ونشفت القطرات. تركت الحقيبة على الفراش، وأغلقت باب الغرفة ووضعت المفتاح في جيبي. خرجت لأتعشى.

شوارع الرباط فارغة يزداد معها الإحساس بالغربة والتذكر. أشجار ومقاه بدأت تقفل أبوابها، وخطى مترنحة سكرانة، والسيارات تعبر بسرعة. فراغ سحيق تملأه الملفات بطبقاتها الغبارية، ودقات الآلة الكاتبة، والوجوه المتعالية التي تجيب باقتضاب وتأمر بالانصراف. أهذه هي الرباط؟ الملابس المعروضة على الواجهات تبدو كأنها صنعت للدمى التي ترتديها، وليس لبشر مثلنا. شممت هواء البحر. تمشيت قليلاً ورأيت الواجهات المضاءة بضوء خفيف. رأيت المكتبات وتذكرت أني لم أسألها عن اسم الكتاب. في وسط النهار تلفنت للإدارة ورد

علي با إبراهيم، فسألته عن منير وأخبرني فإنه كما تركته، وسألني هل يطلب لي نعيمة من الدار فقلت له لا حاجة إلى ذلك.

دخلت مطعماً صغيراً بعد أن رأيت على واجهته الزجاجية صورة كأس كبيرة يفيض منها السائل الأصفر ذو الرغوة البيضاء. احتسيت كأساً من النبيذ وأكلت السلاطة. جاء النادل ووضع صحن الكباب والماكاروني. كنت أشرب وآكل ببطء. وحين أشعلت سيجارة رأيت النادل يخزر نحوي. المطعم فارغ ولعله يستعجلني كي يذهب عند أولاده ويرتاح. أخذت آكل وأشرب وأدخن، وهو يرمقني بنظراته، ثم دفعت له وعدت إلى الفندق.

علقت البذلة على المشجب، ودخلت الفراش بسروالي الداخلي، وبالصدار الصوفي احتماء من البرد. أرعش أطرافي البرد الشتائي، وأحسست بالوحدة. فكرت في أن أنهض وأفتح الحقيبة ثم ترددت في ذلك. الملفات كلها مختومة وموقعة، وأنا في حاجة إلى الارتخاء. أعصابي مشدودة ولا رغبة لي في النوم. ها أنا وحيد بين أربعة جدران. فكرت في النزول إلى الصالون لرؤية بقية برامج التلفزيون، ثم أشعلت سيجارة وعدلت عن الخروج من الغرفة مع هذا البرد المرعش للأطراف. أطفأت النور وجاءتني صورة منير، وابتسامته. رأيته يدخل أودية النار والبارود، وهو يبتسم. جسده يحترق وعظام ساقيه تتفسخ. رجلاه تغوصان في مُذاب النار وهو يمسك بيده رمانة يقشرها ويتناول الحبات بأنامله ليأكلها وهو يبتسم. تسقط منه بعض حبات الرمان في النيران ولا يلتقطها. لا ينظر إلى ساقيه كيف تَفَحَّمَتَا. يسير في

مذاب النار وكأنه لا يحترق ولا يشعر. الابتسامة على شفتيه. عيناه تتسعان وهو يسير على عظام فخذيه المحروقة بعد أن تحللت عظام الساقين في أودية النار. رأيت سيارات الإطفاء تأتي بزعيقها الحاد، لكن الحاجز الحديدي نزل في وجهها بعد أن ظهر القطار قادماً من بعيد. حبات الرمان في كفه، يلتهمها وهو يبتسم. يرفع ذراعيه ويسير كأنه يخض في ماء نهر، وظهرت لي حروق السجائر على الذراعين. عالم قيامي. أشجار أحترقت أوراقها. صخور نارية. وجوه من حجارة تتحرك فيها عيون دائرية بيضاء ومحمرة العروق، والحجارة ذات الوجوه لا أجساد لها. ضحكات. صوت سوط. سوط جلدي مبلل في حوض بلاستيكي وضع في وسط القبو، وأرض النار في السقف. الرأس إلى الأسفل والقدمان مشدودتان إلى السقف. السقف الناري يأكل عظام القدمين، ورائحة الكبريت، وتفحم العظام. رأيت منيراً يأكل حبات الرمان وهو يبتسم، معلقاً من الأرجل ورأسه مقلوب إلى الأرض. السقف مشتعل، تمر على طوله سكة القطار والقطار لم يجتز حاجز طريق السيارات حتى يسمح لسيارات الإطفاء بأن تتقدم نحو مكان الحريق. بركان. قالوا هذا بركان ينفجر، ومن داخله تظهر الحجارة ذات العيون البيضاء المحمرة العروق. سمعتهم يقولون ذلك وعرفت أن رجال الإطفاء لن يستطيعوا إطفاء البركان. زعيق السيارات الحمراء والخوذات لامعة فوق الرؤوس. بدأوا يخرجون خراطيم المياه. وأنا ضحكت. لا يمكن أن يطفيء رجال الإطفاء هذا البركان. نار اصطناعية غير حارقة؟ ساقا منير

تفحمتا وهو يسير ولا يظهر عليه ألم الاحتراق. يفرك حبات الرمان وهو يبتسم. هل هو الممثل؟ هل هذا شريط سينمائي؟ تذكرت المصادفات العجيبة في بعض الأفلام وتذكرت نزول الحاجز الحديدي في الوقت الذي أوشكت فيه سيارات الإطفاء أن تجتاز المعبر الذي تتقاطع معه سكة القطار. ولماذا يبتسم منير؟ هل المخرج هو الذي طلب منه أن يبتسم في هذه اللحظة من العذاب والتحمل والاحتراق؟

السقف مشتعل وكتاف القدمين يتأجج وسط النار الصفراء. وفي مساحة السقف تبث عيون الحجارة وهي تتفتح وتضحك ليختلط الضحك بالصراخ. ثم جاء كلب واستوى منير في كتافه وصار مفتوح الفخذين وذراعاه إلى الأعلى. أقترب الكلب من عضوه المنكمش وأخذ يلحسه ومنير يحاول أن يبتعد إلى الوراء ولا يستطيع. والكلب يدخل عضو منير في فمه دون أن يعضه. يسيل لعاب الكلب وتتقدُ عيناه، وهو يمص أكثر، وعيون الحجارة تضحك، وماء منير ينقذف في فم الكلب والكلب لا يكف عن المص الملهوف والرغبة في المزيد من الماء، والذراعان المحروقتان بالسجائر تحاولان ارتخاءَ والكتافُ لا يسعفهما. وعينا منير تتغلقان وتنفتحان على ارتخاء الجسد والضحكات حتى يسقط الرأس على الكتفين ويغيب منير، يصير كجثة معلقة والكلب لا يكف عن استقطار ماء الجسد.

حين نهض جسد منير نهضت معه الرائحة، والابتسامة المنطبعة على الشفتين والنظرة التائهة في الفراغ. شممت

الرائحة. رائحة ماء جسد منير تملأ الغرفة، ثم صارت الرائحة شيئاً آخر، كأنه دم تعفن بعد أن تفصد من الجسد. رائحة جروح نتنة وهي تمتزج برائحة الخمر في فمي. عرفت أن منيراً لم يكن يمثل، وداهمني الحزن. قلبي يعتصره الألم. أحقاً يكون منير قد عبر هذا العالم القياماتي؟ والرائحة داهمتني. صارت رائحة عطر قوي نفاذ وخفت أن أختنق. رأيت عينيها الشبقتين وشعرها الغجري. عينانِ وشعرٌ هما كُلُّ ما رأيت، ورائحة العطر تخنقني. نظرت في الظلام إلى أرجاء الغرفة، وقد وقف شعري. أشعلت الأباجورة ورأيتها تقف في وسط الغرفة وتضحك، عارية والنهدان باديان تتهاوى عليهما هالة من شعر أسود. امرأة. عرفتها. هذه هي عيشة قنديشة، فماذا جاءت تريد؟ رأتني ورأيتها في الضوء. ضحكت. الضحكة كترقرق المياه في الأنهار، والعينان فيهما شيء من بدء الخليقة، والشعر ينتشر ويُمكن أن يغطي كل هذه الأرض.

امرأة من الماء تصعد،
نار عينيها ضوء في الظلام
وريش القوادم تفتح لها الفضاء.
نهداها لعيون كل الرجال،
ومن خلفها تقف الجبال والأنهار والمحيطات،
والدموع،
والصرخة والشهقة حتى الموت،
موتها نفي في عالم من الحرير وضحكات الصبايا،
جُرْحها في الجسد في أعين الرجال،

في الماء الذي منه تصعد،
وفي دروبه السفلى تختفي،
اسمها عيشة قنديشة.

أهذه هي؟ ولماذا جاءت؟ أنا حزين ومتعب وقد خرجت لتوي من أودية النار ورأيت جسد منير يحترق وهو يضحك، فماذا تريد مني هذه المرأة؟ رأت عيني الخائفتين وضحكت ضحكتها التي تعطيها للرجال. أخفيت جسدي تحت الفراش وأنا أرتعش. عيناها شهوانيتان. من تحت الفراش أخذت أشم رائحة عطرها النفاذ. قلت لها:

ـ كيف دخلت إلى هنا؟
ضحكتها هي التي أجابت.
ـ من أنت؟

أزاحت هالة الشعر عن صدرها ومقدمة العنق، وظهرت لي أناملها الرقيقة والأظافر الطويلة المصبوغة بلون فضي لامع. أشارت بسبابتها نحو أنفها أن أسكت.

ـ من أنت؟

قالت بصوت أنثوي في دلال:
ـ أنا؟ لا تعرف؟
ـ قولي من أنت؟
ـ أحبك. ألا يكفيك هذا؟
ـ عيشة. هل أنت عيشة قنديشة؟

ـ أعجبك إسمي؟

ـ تعيشين في الأساطير فكيف دخلت إلى هنا؟

ـ الأساطير؟ أنا أعيش في خيال الرجال الذين أهواهم. هم يعشقونني وأنا آتي إليهم.

ـ كيف دخلت إلى هنا؟

أشارت بسبابتها جهة الحنفية، ونهداها تترجرجان.

ـ أنسي. أنظر. لم تغلق الحنفية جيداً. قطرات مائية تسيل. وأنا معها دخلت. أحبك.

صارت رائحة العطر نفاذة أكثر مما كانت. رأيت شيئها العاري، والزغب الكثيف الأسود. تقف حافية فوق البساط، ثم أخذت تقترب مني. انفلت من الفراش وفتحت باب الغرفة وخرجت إلى الممر لا توقف مدهوشاً. سمعتها تقول:

ـ حتى أنت تهرب مني؟

في الغرفة تركت الملابس والحقيبة. الممر مظلم. تلمست الحائط لأبحث عن مفتاح الكهرباء ولم أجده. رأيت الغرفة ما تزال مضاءة من تحت الباب. دفعت الباب بحذر وأطللت فرأيتها تنام في الفراش، فوق البطانية، عارية وقد رفعت ساقيها في الفراغ، ورائحة العطر. التفتت نحو الباب ورأتني. فتحت ذراعيها فتراجعت نحو الممر المظلم وهبطت الأدراج.

صعد معه موظف الاستقبال. أضاء نور الممر وأقتربا من

الغرفة. دخل موظف الاستقبال ولم يجد أية امرأة. مازحه بأنه قد شرب كأساً زائدة عن طاقته، وقال تصبح على خير وهبط الأدراج. كان قد تفحص ما تحت السرير، وخزانة الملابس، والحمام، ولم يعثر على أية امرأة. ورائحة العطر قال لا يشمها. ظل ينظر إلى جسد قاسم المرتعش، ويقول له لا تخف. لا شيء يمكن أن يجعلك ترتعش هكذا. وقاسم ينظر الرجل الذي يتفحصه ويجد جسده يرتعش بالفعل، ويشعر أن نظراته زائغة، وأنه على وشك السقوط. يفكر في الكأس الزائدة عن طاقته وفي حاسة شم موظف الاستقبال الذي أقترب منه وهو يدخل الفندق بعد أن عاد من المطعم. والموظف يقول لا يشم أية رائحة عطرية، وأنا تخنقني رائحة العطر، لقد بدأت أشمها في كل مكان، حتى في الممر والأدراج. كنت قد تبعته إلى داخل الغرفة ورأيت معه أن لا امرأة هناك. ولم أستطع أن أقول له إنها تظهر وتختفي. خفت أن يسخر مني. امرأة أسطورة، وأنا أعرف أن الأشياء التي تحكي عنها الأساطير لا توجد في الواقع، ولكني رأيتها بشعرها الغجري، وصدرها الناهد العاري، وعينيها الشهوانيتين، وشممت عطرها النفاذ. كلمتها وقلت لها وقالت لي، فهل من طريق للرجوع؟ هل هناك طريق للعودة إلى ما كنت، أم أنني قد مشيت في طريقها وعلي ألا أعود؟

وقفت وسط الغرفة حائراً، وضبطت نفسي وأنا أفكر ببعض الأفكار. أغلقت الباب من الداخل وأطفأت الضوء الجانبي الذي على الجدار، وضوء الأباجورة. حاولت أن أنسى وأن أسترخي

لأنام. في الظلام سمعت الضحكة، وشممت رائحة العطر. ماذا سيقول موظف الاستقبال؟ المرأة ضحكت ومن عادتها أن تأتي على هذه الصورة، وقاسم لا يقبل مثل هذا المزاح، لم يتعود الزوغان في الشوارع ويحتقر الأزواج الذين يخونون زوجاتهم. والرجل مهما كان رزيناً وأهلاً لثقة زوجته فلا بد لها من أن تخاف عليه من عيشة قنديشة. وقاسم خرج من الغرفة وقضى الليلة في الممر، يرتعش ويقول لنفسه كلامهُ الخاص، وفي بداية الصباح تسلل على رؤوس أصابعه إلى خارج الفندق بعد أن رأى موظف الاستقبال يحني رأسه ويغط، ولم يفكر في مفاتيح السيارة التي تركها داخل جيب البذلة، وفي الحقيبة التي تحتوي على الملفات. نسي كل شيء، ولم يعرف ما كان يقوله في شوارع الرباط.

* * *

أنا لَم أقل له أي شيء يغضبه في تلك الليلة، وهو شتمني ورمى بربطة العنق التي كانت في يده على وجهي. طلبت منه أن ينسى موضوع التقرير الطبي، وأن نواجه حالة منير بما نستطيع حتى يسترجع ثقته بنا. منذ أيام ظل يصر على الاتصال ببعض المنظمات الدولية ليمكنها من صور جسد منير المشوه ومن التقارير الطبية. وأنا أقول له لا فائدة، فمنير لا يعرف أين كان ولا من عذبه كل هذا التعذيب، ومتى سيتكلم نعرف كل شيء. لكنه شتمني. حتى الكتاب الذي طلبت منه أن يشتريه لي من الرباط لم يسألني عن عنوانه، وغاب في سفره خمسة أيام ليعود شبه عار، منكوش

الشعر وعيناه جاحظتان وهو يتكلم عن المرأة التي تسللت إلى غرفته في الفندق من صنبور الحنفية، ويقول لها أشياء عن منير وهو يبكي. عاد بسرواله الداخلي، وقد ترك السيارة في مكان ما، ليشغلنا بحديث المرأة ذات الرائحة العطرية.

أمي بكت، ومنير ظل يبتسم ولا ينظر إليه. وحين جاء با إبراهيم أخذ الوالد يتحدث عن المرأة التي تسللت إلى غرفة الفندق، بعد أن رأى عيوناً من الحجارة ورأى منيراً يحترق في أودية النار. نهض نحو منير وكشف عن ساقيه وفخذيه ورأى الجروح التي أخذت تلتئم. قال هذه جروح وأين هو العظم الذي تفحم. أنا رأيت سيارات الإطفاء قادمة لأنقاذك ولكن القطار الذي أراد أن يجتاز الحاجز منعها من الاجتياز. والرمان؟ أين هي حبات الرمان؟ كيف تأكل حبات الرمان وأنت تحترق؟ يهز كتف منير ويقول له قل لي. ومنير يبتسم وينظر إلى السقف. ينظر إلى عيني منير وقد جحظت عيناه ويسأله عن العيون التي تتكشف من وجوه الحجارة وهي تضحك ويسأله هل هي العيون التي أطفأت سجائرها على ذراعيه وسرته وصدره. ومنير يحدق في السقف والجدران. قال الوالد هم الذين أرسلوا له هذه المرأة، يريدون أن يشغلوه بها عن موضوع التقارير الطبية والصور والاتصال بمنظمة حقوق الإنسان. يخزر تجاه الوالدة وتجاهي ويقول لهذا الشيء وجدتن، المرأة وجدت لإفساد عقول الرجال، وأنا أفكر في خطة. لا بد من خطة لمعرفة ما وراء تلك المرأة. وحين سأله با إبراهيم عن السيارة قال له اسألها، وأشار بيده نحو الباب، هي

تعرف أين تركت السيارة، وهي ستأتي بها، فقد تركت لها المفاتيح. لا تخف. سترجع السيارة ولكن قل لها أنا لست هنا. لا أريد أن أراها مرة أخرى. رائحة عطرها تخنقني. قل لها قاسم لم يعد إلى فاس. وهو ما يزال في الرباط. تسلم منها السيارة وقل لها قاسم يطلب منك أن تلحقي به إلى الرباط، فهو في غرفة ذلك الفندق ينتظرك. أسمعت يا با إبراهيم. والأبواب. قل لهم أن يراقبوا الأبواب جيداً. والمجاري. ومياه الصنابير. والحمام. أخاف أن تدخل مع الماء. لا تفتحوا صنابير المياه. خذوا علب الزيت البلاستيكية الفارغة وأسقوا الماء من مكان آخر. لا بد من قطع الماء عن السجن.

كان يصرخ، وصراخه لم يهز منير. وأمي بكت وبا إبراهيم بكى. ظل في الغرفة عدة أيام. أمي تأتيه بالطعام وتُخرجه إلى الحمام كما أفعل أنا مع منير. لم تكفنا مصيبة منير وزادتنا مصيبة الوالد.

توقفت عن الذهاب إلى الكلية. بدأت أسمع من منير كلمة «أختي» التي أفتقدتها من لسانه منذ مدة. لم يقل لحد الآن أكثر منها. يظل ينظر إلي ويبتسم. وأمي لا تنام. تقول السي قاسم يظل طوال الليل يهذي ويصرخ ويذكر ما رآه. أشياء غريبة. يتكلم عن الدم وسلخ جلد بني آدم بملاقيط وأظافر اصطناعية. يقول يسلخون جلده وهو يرى. ها هم يأتون بالملاقيط. عيناه يقول صارتا بيضاوين. والسجائر يراها تنطفيء على الذراع. ها هم. جاؤا بالملاقيط، والكلب جاء يلهث ويخرج لسانه، يلعق الجسد

ويبحث عن مكان مًا فيه كي يمصه حتى يستقطر ماءه. أخاف من الكلب. أخرجوا هذا الكلب من الغرفة حتى أنام. الكلب سيمتص ماء جسدي. أنا أحب رقية. امرأتي ورفيقة عمري ولا أحب الكلاب. ها هو الكلب جاء. أخرجوه من هنا؟ لا أريد أن أرى كلباً في حياتي. الكلب كلب. كلهم كلاب ولذلك أرسلوا الكلاب لتنهك قوى جسد منير. كلابهم مدربة لم تخنقها رائحة العطر. أنا رأيت الكلب يعذب منيراً ورائحة العطر لم تخنقه. وماذا لو أختنق الكلب؟ وماذا لو لم يصل القطار في تلك اللحظة؟ وماذا لو أن الشجرة لم تثمر ذلك الرمان؟ وماذا لو أن النار كانت غير محرقة. وماذا لو أن منيراً لم يخرج في ذلك النهار؟ وماذا لو لم يأت القطار في تلك اللحظة؟ وماذا لو ذهبت عيشة قنديشة إلى أولئك الرجال وأخذتهم إلى فراش اللذة فانصرفوا عن المهمة؟ ها هي جاءت. رائحة عطرها. عيناها. شعرها. نهداها.

يصرخ ويوقظ أمي التي يظن أنها قد نامت، لتراها. تشعل الضوء وتقول له أهدأ يا السي قاسم. لا أحد معنا في الغرفة. أنا امرأتك وليست معنا أية امرأة أخرى. وهو يقول ها هي، هل صرت عمياء؟ هي قدامك وأنتِ لا تبصرينها. يشير إلى مكانها الوهمي بإصبعه ويصرخ ها هي. ينهض على ركبتيه ويشير إلى زاوية في الغرفة. يشهق ويصاب بالخيبة ويبكي. بعد أيام صارت أمي تتظاهر بتصديقه وتقول له نعم في كل شيء كي يهدأ، وهو يقول هل رأيتها وهي تقول له رأيتها وستذهب، ها هي، سأحرق الجاوي المكاوي وحصالبان والشب والحرمل. ستذهب. لا

تخف يا السي قاسم. وأمي تشعل النار في المجمر وتضع فيها الحبات، وهو يهذي. تُرِيهِ حبة الشب كيف تحترق، وتظهر عليها وجوه وعيون وأنوف وأفواه مفتوحة. وجه يمكن أن نعرفه تقول. وجه عدو. أنظر وتأمل. يقترب من المجمر ويَرى حبة الشب كيف تشكلت بعد احتراقها. يقول ها هي. إنها هي. وأمي تقول له لقد أحترقت؟ وهو يعبس ويقول يسمع ضحكاتها من المجمر، من داخل النار يرى نهديها وشعرها الغجري، يرى الملاقيط التي تقلع الأظافر والأظافر الاصطناعية التي تقشر الجلد. يشم رائحة البخور ويقول هذه رائحة عطرها الذي شممتها في الفندق. ستصعد من المجمَر. وأمي تقول له نعم ها هي، رأيتها ستصعد، وما دامت لا تتكلم ولا تفعل لنا أي شيء فستخرج من باب الدار، أو ستذهب إلى الجبل، هناك ستخرج روحها، فلقد أحترقت. يحتد ويقول كيف تموت ورائحة عطرها تتصاعد من المجمَر. يتكلم عن شعر المرأة المُسَرَّح الفاحم في سواده وقد استرخى على جانبي الوجه والعنق ومقدمة الصدر. والوجه المستدير المُفَنْطَحِ بالعكار. الثديان عاريان. يقول ثدياها، أنظري. هذه المرأة تستحم بالعطر، عشقها أحد الأثرياء وملأ لها مسبحاً خاصاً بالعطر فاستحمت وهربت منه وجاءت إلي. أنا لا أريدها؟ لترجع إلى ذلك العاشق. أنا أحب أولادي وامرأتي. ليس عندي مسبح مليء بالعطر. هذا جنون. الناس لا يجدون الخبز ويأكلون من سطول الأزبال وهي تستحم في مسبح من العطر؟ قولي لها أن تذهب. مجنونة. مجنون ذلك العاشق. قولي لها أن تذهب إلى امرأة

البترول. وأنا عندي الزنازن. إذا جاءت سأدخلها إحدى تلك الزنازن، هي ومن معها، هي وكل عشاقها، هي والذين أرسلوها إلي. أعرف. أنا مجنون. تقولين أنا جننت؟ ولكن سترين ما سيفعله قاسم. سترين من سيدخل الزنازن ومن سيخرج منها. انتظري يا رقية حتى أرتاح من تعب السفر وأخرج إلى الإدارة لأعطي الأوامر بإطلاق سراح كل المعتقلين السياسيين، واعتقال آخرين بتهم مختلفة أهمها سرقة النوم من الجفون وتقليم أظافر الأطفال وزرع الابتسامات البليدة على الوجوه. يرتمي على الوسادة ويغمض عينيه في الظلام، وتسمعه أمي وهو يبكي ويشهق بصوت مكتوم.

في الصباح يظهر وجه أمي المنتفخ وحدقتا عينيها الزرقاوين ورأسها الملفوف في منديل أزرق. تجلس بجانبي صامتة ونظراتها سارحة. أعرف ما تفكر فيه وأطمئنها على منير. أقول لها لقد نام طوال الليلة ولا تقول لي شيئاً؟ أحاول أن أغير مجرى تفكيرها وأسألها هل أعد الفطور فلا تجيب بشيء. كل محاولاتي معها تفشل، ولذلك أقرر أن أسألها عن حالة الوالد في الليلة الماضية، وعندما تتكلم تحكي لي كل شيء عن هذياناته المتواصلة وهي تخفض من صوتها وتقرب فمها من أذني كأنها تخشى أن يسمع كلامها عنه. من حين لآخر تضرب كفاً بكف وتقول ضاع السي قاسم. أبوك ضاع يا بنتي. أحس في حديثها بقية من الغيرة على الوالد. تغار عليه حتى من هذا الوهم الذي يغرق فيه.

والوالد شاب فُودَاه، يشكو في أيام البرد من آلام الروماتيزم،

بعض أسنانه منخورة وإن كانت تبدو من الخارج متماسكة . ينشغل بإدارة السجن، وبتعليمنا إلى أن وصلنا أنا ومنير إلى الجامعة. في صغرنا كان يفرح بنا ويدللنا كثيراً، يطلب منا أن ننام على جنبيه في فراش واحد، بعد الغذاء، في أيام العطلة المدرسية. يعانقنا، منير بذراع وأنا بذراع. نتضايق ولكننا نحس بسعادته بهذا الوضع فنهدأ له ريثما ينام ثم ننسل منه ونذهب للعب في الغرفة الأخرى. والوالد تغير، في السنة التي وصل فيها منير إلى الخامسة من الثانوي، كنت أنا في الثالثة، أتابع نقاشاتهما التي تمتد وتتحول إلى نوع من الشجار. حين يخسر منير بعض أوراقه في النقاش يهاجم الوالد في وظيفته. والوالد يصفر لونه ويبتلع ريقه كأنه يغص، ومنير يوغل في إيلامه حين يذكر مشاركته في حرب الهند الصينية ويشتم الارتزاق والمرتزقة. الوالد يخرج من الغرفة. يذهب إلى المكتب في إدارة السجن ويغيب مدة ثم يرجع وقد غامت عيناه وصار لون وجهه أزرق. فجأة يضاحك منيراً ويقول له معك الحق. أنت حبيبي. ابني وصديقي فلا تحاسبني عما كان. نفرح أنا وأمي بالمصالحة ومنير لا يفرح. ترتب أمي مائدة الغذاء ومنير لا يأتي ليأخذ مكانه بيننا. يقول شبعان والوالد يحتقن وجهه بالزرقة وينهض عن المائدة ويغيب في المكتب.

حين كنا صغاراً، كان يحدثنا عن الهند الصينية. أشجار كثيفة خضراء وبنات عيونهن كحيلة. الوجه مستدير والعينان مستطيلتان، والنار. كل شيء يطلق النار، حتى الأشجار والحفر وبرك المياه. كان يحكي لنا حكايات الهند الصينية ويشتم

الفرنسيين. يقول أخذوه إلى الخدمة العسكرية بالرغم عنه. فقير وابن فقير، وكانوا لا يأخذون إلا أبناء الفقراء، الأغنياء محميون بالحمايات الإنجليزية والإيطالية، ويعتبرون أنفسهم غير مغاربة ليستفيدوا من القوانين الاستعمارية التي تتيح للأجانب فرص الاستغلال الاقتصادي. كان في السابعة عشرة، يدرس في إحدى المدارس الحرة التي أنشأها جيل الحركة الوطنية. والوالد يعترف، يقول كان يرسب في الامتحانات، ويكره النحو والصرف وأبيات الشعر التي لا يفهمها. يقول حين أخذوه إلى الهند الصينية رأى الموت والدم والشظايا الآدمية. كان لا يعرف لماذا يحارب، وكل ما يعرف أن فرنسا تريد أن تقهر هؤلاء القوم ذوي العيون الضيقة. يقول كان معنا جندي من مراكش اسمه آيت باها، وكان مكلفاً بجهاز الاتصال. نعبر أنا وإياه الأنهار ونوغل في البرك التي لا نقدر عمقها حتى نقطعها نحو الأشجار القصيرة على الضفة المقابلة، وكان معنا علي اليوسفي من الدار البيضاء، واغروش من الأطلس، بربري يكاد لا يعرف اللغة العربية. وكنا نسير في الوحل ونتجنب الكمائن ونواجه الموت. فجأة أنفجرت قنبلة ورأيت أمعاء آيت باها تندلق من بطنه، والرجل يسقط وبجانبه جهاز الاتصال. حاولت أن اتصل دون فائدة. والرجل رأيت أمعاءه يتصاعد منها البخار وهو طريح لا يتحرك. مزقت قميصه وأعدت الأمعاء بيدي إلى بطنه. هذه يدي. هل رأيتموها؟ لقد أعدت بها أمعاء آيت باها إلى بطنه ولَأَمْتُ الجرح. ربطت بطنه بالضمادة التي صنعتها من مزقة القميص، وحملت آيت باها على كتفي حتى

قطعت البركة المائية وأوصلته إلى مكان النجدة. وعاش آيت باها، وهو اليوم إسكافي في درب السلطان بالدار البيضاء. قابلته صدفة في القطار ذات مرة وأصر على أن يدفع عني ثمن التذكرة، وسألني عن أحوالي وهل صار لي أولاد. قال رزقه قليل ولذلك لم يتزوج. ينام في الحانوت ويفعل فيه كل شيء. لم أسأله عن الجرح هل يسبب له بعض المشاكل خوفاً من إحراجه بما قدمت له من مساعدة أنقذت حياته. ومرة أخرى كنت أسبح في حَامَّة مولاي يعقوب، وحين صعدت من الماء الحار رأيت وجهه وسط البخار وهو يجلس على حافة المسبح، وقدماه في الماء الساخن. آيت باها. رأيت بطنه العارية وكانت بها آثار رتق، ولكن بدنه قوي، وكنت على وشك الخروج من المسبح فلم أكلمه.

عشنا مع الوالد حكاياته. كنا نسعد حين يمسك بخيط الحكاية ويبدأ. ننظر إليه مشدوهين وهو يواصل وصفه للأشياء والأماكن. أصبح رفاق شبابه يسكنون في مخيلتنا، وربما نعرفهم أكثر من معرفته بهم. نحب الواحد منهم ونكره الآخر. والوالد لم يعد يحكي لنا مثل هذه الحكايات منذ أن تغير منير وصار يواجهه بعنف ويشاجره حول بعض «المباديء» وحول «التغيير». كل ما كنا نلاحظه حول شخصه ونحن صغار، أنه يشرب من دم الكبش يوم عيد الأضحى. يأتي بالكبش في ليلة العيد، وفي الصباح يدخل با إبراهيم ليشرب معنا الشاي ويأكل «كعب الغزال» قبل أن يذبح الكبش. وحين ترمي الوالدة حفنة الملح على نحر الكبش، يكون الوالد قد أعد طستا ليعترض جريان الدم الساخن، وحين تمر

صبرها. كان الوالد قد أضاع السيارة، كما أضاع ثيابه وحقيبة الملفات التي حملها معه إلى الرباط. بعد أيام أعادوا السيارة وأعادوا لنا ملابسه. أما الحقيبة فقد أخذوها دون أن نعرف ما سيترتب عن ذلك، ولم نعرف هل ضاعت أم استرجعتها إدارة السجون.

صبرنا على ذلك الحل حتى جاء آخر الشهر وحمل با إبراهيم إلى أمي ظرفاً مفتوحاً وقال يجب أن تعد ما فيه، فهو راتب السي قاسم الشهري. وأمي بكت. ومنير نهض من فراشه وخرج إلى باب الدار ونظر إلى وجه با إبراهيم وهو يبتسم. أطال فيه النظر بابتسامة المحيرة ثم عاد إلى فراشه. ظل أبا إبراهيم واقفاً حتى بعد أن أخذت أمي النقود. دعوته لأن يجلس. كان ينظر إلى الأرض وهو مرتبك. قلت له قل إن كان هناك ما يقال. قال لا شيء ثم أخبرنا بأنهم سيعينون مديراً جديداً للسجن، فبعض التلاعبات بدأت تقع، والإدارة المركزية ليست غافلة عما يحدث.

لم يعد الوالد يخرج من غرفته. حتى الحديقة لم يعد يشتهي أن يشرب فيها كأساً من القهوة بعد قيلولة قصيرة كما كان يفعل. والوالدة ليس لها أحد، لا أب ولا أم، ولا أخ ولا أخت، سوى خالها الذي يسكن في المدينة القديمة. نجار أغلب أشغاله إصلاحات، وقد تعب جسده، متزوج من أمرأة شهباء لم تكن ترتاح لها أمي بسبب عداوات قديمة. حين أخرجونا من الدار ذهبنا للسكن مع خال أمي في درب الواد، قرب ضريح مولاي إدريس. كنا نغادر الدار والوالد مشدود النظرات إلى مكتبه، ساكت،

وعيناه تفيضان بالتعابير القاسية، وكان مسلوباً تأخذه أمي من يده وهو ينقاد لها، وعيناه تنظران وتتعلقان بالخلف وهو يسير.

دخلنا الدار العتيقة في درب الواد، وتجمعنا في غُرفة واحدة. وفي أول ليلة لم يصرخ ولم يتوجع، ولم يَصِفْ بهذياناته ما كان يراه. كانت أمي تحكي لي كل شيء. وهو في الليلة الأولى من مقامنا في دار خال أمي لم يصرخ كعادته. ظل هادئاً ومُكَوَّماً في الفراش. ومنير أنحبس صوته. ظل يبتسم للجدران العتيقة وتخريمات الجبس، والباب العالي ذي الدفتين الكبيرتين، ولم يكف عن ابتسامه الذي يعبر عن اكتشاف بريء لعتاقة فضاء الدار الفاسية التي أصبحنا نسكنها. طالت نظراته المتنقلة بين السقف والجدران وزليج أرضية الغرفة، وعيناه البريئتان تتسعان وثغره يفتر عن أسنان ناصعة بيضاء لوث أماميتيها دخان السجائر. هنا بقينا، في هذه الدار، والأثاث مكوم في كل جنبات الغرفة، وأمي تخرج إلى سوق الرصيف لتشتري لنا بعض الطعام.

بدأت تلح عليَّ في استئناف الدراسة بالكلية، وتقول يكفي ما ألاقيه من أبيك وأخيك، هل تريدين أن تضيعي نفسك؟ قاسم كان. ضاع السي قاسم وضاع أخوك منير، وتبكي. وأنا لم أعد أطيق أن أفتح كتاباً أو أحضر درساً في الكلية. أتصور أن وجوه الطلاب سترعبني، كما أحس أن أسئلة فريد ستحرجني. لم نلتق منذ أكثر من شهرين. بدأت أشعر أني أغوص في قرار طيني يحجب عني كل الأشياء التي سبق أن رأيتها أو حلمت بها. ما جدوى هذه التجمعات، والحرب مع «الأواكس»، ورفع شعارات الاتحاد

الوطني بطريقة تسمح بالاختفاء عند وقت الهجوم؟ لا الكلاب البوليسية، ولا اقتحام غرف الطلبة والطالبات، ولا الآفاق التي تبدو مسدودة جعلتني أعاود السؤال: ما العمل؟ شيء تغير في أعماقي، وبدأت أعتقد أننا جيل جديد ضائع، يحاصر نفسه بأفكار التغيير في قلعة الجامعة التي يتصورها كلا مجتمعاً قائماً بذاته، بينما تسير الأمور في سريانها الآني والتاريخي في اتجاه آخر، فلا انتقاد الأحزاب ولا إدانة سياسة الحكومة تستطيع أن تغير هذا السطح الذي تطفو عليه فقاعات آخر الأنفاس. هل أصبحت سوداوية الرؤية إلى هذا الحد؟ وفريد بحرارته واندفاعه، وأخي قبل أن يتحمل نصيبه من الأذى، والرفاق، كلهم يتصورون أن بضع قطرات من الدم تستطيع أن تغير كل شيء وتعيد لدورة التاريخ توجهها الصحيح. وأنا حين أفكر في غياب التنظيم الذي يسيس الفلاحين والعمال، وفي القوانين الظرفية التي تحكم طبيعة وعيهم وممارستهم، أشعر أننا شرنقة، بداية كون، ولكننا ننسى الكون الكبير الذي تتعايش فيه الصراعات ويطفر على سطحه اليومي، بدءاً من مواجهة غلاء الأسعار، وازدحام وسائل المواصلات، والحروب اليومية الصغيرة التي تحجب صيرورة الزمن البطيئة التي نكاد بها لا نشعر. نبدأ بالحب ونفكر في حظنا في المباريات، ثم نحلم بالوظيفة وبالشقة، والأولاد، لنذوب في سديم هذا اليومي ونخلق مبررات لوجودنا بعد أن نحاول التكيف مع واقع صلب، قاس، تتقلص داخل عيشه محاولة التغيير.

ماذا أقول لفريد؟ تعال أنظر. ها هو منير يبتسم وهو نائم.

ينظر إلى الحيطان كأنه يراها لأول مرة. حينما يقول أختي أفرح، وأعزي نفسي بأنه يتكلم. استعادة الكلام بالنسبة لمنير صارت هي كل شيء، وكذلك اختفاء الابتسامة التي لا أقدر على وصفها بأنها بلهاء. أحياناً يصير وجه منير صورة في خيالي، أراها مرسومة على صبورة سوداء بطباشير بيضاء. وأفكر في محو الابتسامة، أو تعديل وضعية الوجه والشفتين. أحاول أن أجعله يرى بصورة طبيعية، يعبس، يتعجب، يندهش، يضحك، يصرخ فتبدو ملامحه منقبضة وتتصلب عضلات وجهه. لا أستطيع. كل هذا ضاع. صار وجه منير صورة ثابتة. هم سَوَّوْهُ هكذا وأطلقوه. هل رأيت شكلاً من أشكال التعذيب كهذا؟ أفكاره لا أعرف كيف صارت. يبدو أنه صار لا يفكر. يرى الأشياء ويحاول أن يستعيدها. حتى أنا وأمي والوالد صرنا أشياء بالنسبة إليه. ينظر إلينا كما ينظر إلى الجدران أو السقف، وكأس القهوة الذي في يده، والسيجارة. أليس هذا قاسياً يا فريد؟ قل. أبعد هذا نفكر في الحب واجتياز بعض المباريات، والوظيفة، والزواج، والأولاد، وسلسلة الماجريات التي ليست سوى شكل من أشكال تقبل الفجيعة؟

والوالد، هل تريد أن تراه؟ أما زلت ترغب في أن تسمع منه تجربته النضالية في بداية الاستقلال؟ تهاوى الجسد، وصار ركاماً من العظام التي تتدَثر داخل جلابية بنية من الصوف المخبب. يتكوم جسد السي قاسم داخل الجلباب وهو يدخن، في زاوية الغرفة الفوقانية التي نسكنها في بيت خال أمي. مرت الأيام الأولى التي قضيناها هنا، بعد أن غادرنا سكنى السجن. والوالد لا

يصرخ، لا يحكي ما يراه مِنْ صور وأخاييل، لا يتحدث عن العطر وعن الرمانة التي يردد دائماً أن منيراً يُفَتِّتُ حباتها ويأكلها. ولا نعرف هل كان ينام في الليل أم أنه يظل صاحياً في صمته يتأمل، أو يسترجع مِحْنَتَهُ ومِحْنَتَنا. وأمي بدأت تقول إن حالته ستتحسن، فلماذا بادروا إلى إِبْعَاده عن الوظيفة؟ قاسم سيعود إلى حالته الطبيعية، وتتفاءل أمي بأن إدارة السجون قد تعيده إلى عمله، حتى وإن كان في مدينة أخرى، فالسجون في كل المدن، وسجن «عين الكهف» ليس أشدها وأَعْتَاهَا ولا أهونها. حتى المدن الصغيرة تتوفر على السجون وإن كان سجناؤها يعاملون معاملة الطلقاء، يخرجون للقيام ببعض الأشغال في الحدائق العمومية، ويتبادلون السجائر مع حراسهم، ويقابلون أهلهم في عرض الطريق ليتبادلوا بعض الكلمات، خارج أيام الزيارة والوقوف وراء الحاجز الشبكي الذي يفصل بينهم وبين أهلهم بمترين أو أكثر. في الحدائق يقومون ببعض الأشغال البسيطة، ويأتي إليهم أهلهم بالنقود وببعض الحاجيات، فيعرفون منهم بعض أخبار العائلة، والأفضل إذا عاد السي قاسم إلى الوظيفة أن ينقلوه إلى وَاحِدٍ من هذه السجون.

تسترسل أمي في حديثها عن السجن والسجناء ووظيفة الوالد. لكنه الآن لا ينهض ولا يخرج إلى السطوان ليطل من الدربوز على السفلي. وسِيدْ العثماني خال الوالدة لا يصعد إليه ولا يكلمه أو يسألنا عن أحواله. يبدو أن زوجته غير مرتاحة لمشاركتنا لهم سكنى الدار. عندما تقول له أمي: لا بَأس؟ يقول:

لاَ بأسْ. وحين نجتمع حول الطعام تكون أمي قد وضعت المائدة أمامه، وجاءته بطست ليغسل يديه، ومع ذلك تظهر أنامله الصفراء النحيلة، وهي تمتد إلى اللقم ببطء، ويكون أول من يتراجع. تقول له أمي: كُلْ. ويجيبها: شبعت.

أراد الوالد في هذا الصباح أن يخرج. كانت أمي قد ذهبت إلى سوق الرصيف لشراء بعض الخضر. نهض من الفراش وأخذ يبحث عن حذائه بين أدوات المَطْبخ ووسط ركام الأثاث الذي جئنا به من السكنى السابقة. لم ينتعل حذاءه منذ أن دخل إلى هذه الغرفة. والحذاء مكوم مع بعض الأشياء التي جلبناها معنا. رأيته يبحث وقلت له:

- ماذا تريد؟
- الحذاء.
- إلى أين تريد أن تذهب؟

لم يجب. وسألني عن مكان الحذاء فأخرجته من تحت الخزانة المسندة إلى الحائط. عدت أسأله:

- أين ستذهب؟

قال وهو ينتعل الحذاء:

- عند أصحابي.
- أين؟
- في الزنقة. في باب الفتوح.

والوالد لا أصحاب له. لم يكن يرافق حراس السجن، ولم

يزره أصدقاء في الدار، كما أنه لم يكن يذهب عند أحـد. كيف أمنعه؟ طلبت منه أن ينتظر عودة أمي من السوق ولكنه لم يجبني وخرج. خرج ولم يعد.

عادت أمـي وأخـذت تلومنـي علـى تركه يخـرج. ومنير ظل يبتسم، وينظـر إلينـا. لا تعـرف هل كانـت ابتسامـة الشماتـة أم الاشفاق، أم أنها البسمة التي صارت عادة. ابتسامة معلقة علـى شفتيه ومحياه. قالت لي وقلت لها، وجلسنا صامتتين ننتظر. جاء الليل ولم يعد. طلبت أمي من سِيْد العثماني أن يبحث عنه، وقال لها السي قاسم رجل وليس طفلاً حتى يضيع. أين سأبحث عنه؟ كان يرفع رأسه كَيْ يُكَلِّمَها وهي تطل عليه من الدربوز، وهو يرفع رأسه نحوها ويقول ذلك كان زمان، عندما كانت أبواب المدينة تُغلق مع ميقات المغرب. حتى بعض الأبواب التي شُيدت علـى الطرقات والدروب السالكة تغلق، وحين يتأخر بعض الرجال، لا يستطيع أحـد أن يخـرج للبحـث عنهـم خوفاً من أن تغلـق عليه الأبواب هو الآخر. الشراب. قبح الله الخمر. كانوا يصعدون إلى الملاح ليشربوا الماحية عند اليهوديات. ينسون نفوسهم في لاَلَّة وَمَالِي وتغلق دونهم الأبواب. السي قاسم يمكن أن يتفكر. حالما يرجـع يقـول لك. زمـان النصـارى كان. اليوم الأبـواب كلهـا مفتوحة. يدخل الناس كما تدخل الحمير والدواب. أين سأبحث عنه؟ في مقهـى العَشَّابِين؟ الرجـل ضاق وخـرج. خليه. وحـق المصحف الكريم آ لاَلَّة رقية، آ بنـت أختـي، الرجـل ما هو إلا رجل، ولكن حين يجد راحته في بيته لا يخـرج بدون وقـت ولا

ميعاد. ألسي قاسم رأسه مخبل مثل خيوط الحرير إذا تخبلت، من يستطيع أن يسرحها ويعيدها إلى حالها خيوطاً ملفوفة بانتظام؟ لا أعرف أين سأبحث عنه والصباح رباح.

كنا نسمع. رأس أمي يتدلى إلى التحت وهي تطل عليه. وهو لم يكلف نفسه أن يصعد لمجاملتنا والسؤال عن حال الوالد ومنير. واليوم يخلط الأشياء بعضها ببعض ويقول رأيه في الوالد. والراجح أنه كان ينظر إلى الشهباء القابعة في وسط الغرفة السفلية أمامه، وهي تَسْتَعْجِلُ أن يُنهي حديثه مع أمي بسرعة ويعود للجلوس معها، وحين أشار إلى راحة الرجل في بيته كان يطريها، ويعني نفسه.

بعد يومين ذهبت أمي إلى سجن عين الكهف. دخلت دار با إبراهيم. وحين سألته عن ألسي قاسم قال لم يره منذ أن غادرنا الدار. عادت وهي تبكي. قالت الحديقة تشذبت نباتاتها وأسوار الدار الخارجية صارت بيضاء بعد أن طليت بالجير. والمقتصد قالت رآها وهو يخرج من داره ولم يكلمها، وبا إبراهيم قالت بكى، وقال ما بيده أن يفعل شيئاً. ظلت تتحدث عن الجدران البيضاء والنوافذ المطلية باللون الرمادي. حرقة الخروج من الدار أنستها بحثها اليائس عن الوالد. وانتظرناه ولم يعد.

البكاء الصامت.

العينان المتقرحتان.

البسمة الذاهلة التي تبتكر أشياءها من الفراغ.

الصمت .

صخب الذاكرة .

نقيق الضفادع الوافد من الدَّور السفلي .

هذا هو عالمي . هنا أوجد. داخل هذه الغرفة أصبحت أغيب ساعات وأتواشج مع هذه العناصر. هذا هو لوني، لون هذا الجبس البارد الذي أخذت بعض من بقعه تتهدم. هذا مداري : الغرفة الفوقانية في دار سيد العثماني . أمي تصعد إلى السطح وتجلس تحت الشمس وهي تبكي، ثم تنهض وتقف بجوار السور وهي تنظر إلى سطوح المنازل المتداخلة والصوامع وقباب الأضرحة، والدموع تسيل على خديها . وأنا لم أعد أجد ما أقول . منير لا يغادر الغرفة إلا لقضاء الحاجة . ينهض ويسير بخطوات بطيئة . يقطع السطوان ويهبط بضع درجات ليصل إلى المرحاض . يدخله ويترك الباب مفتوحاً . وزوجة سيد العثماني لا تصعد إلى الفوقي . أحياناً تجتاز باب الفوقي في طريقها إلى السطح وتلتقي مع أمي فتسألها باستعجال :

ـ كيف بقيتم ؟

وتجيبها أمي وهي لا تنظر إليها :

ـ الحمد لله . يلطف بنا .

ـ الصبر .

أسمعها تلقي كلمتها الأخيرة بطريقة آمرة وصوتها المرتقع يمتد، وكأنها تشير إلى أنها هي وزوجها لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً ، ثم تواصل صعود الأدراج إلى السطح لنشر الغسيل .

الشجرة الميتة الصفراء،
نطل عليها من الدربوز،
خلال لحظات العبور من الغرفة إلى الأدراج.
منتصبة،
لكن بعض أوراقها صفراء،
وعروشها نافرة سوداء،
تكاد تكون عارية من الأوراق.
ليمونة أو برتقالة؟
تنتصب وحدها في باحة الدار،
تسترق السمع إلى حديث الوسادة،
بين سيد العثماني وزوجته الشهباء،
وترانا.
الشجرة لا تقول.

لا تشي بما تسمع من أخبار يَتَكَتَّمُ عنها سيد العثماني ولا يريد أن يخبر بها أمي، ولكنه يبوح بها لزوجته الشهباء لالة ميمونة. كانت تتباهى أمامنا بشعرها الأصفر، وتصعد إلى السطح كي تُضَمِّخَهُ بالحناء أو تُخَلِّلَهُ بزيت الزيتون. ترسل سالفها الذي يغطي صدرها وكتفيها وتنظر إليه وإلى أشعة الشمس. تشمه. تمسده أو تخلله بأناملها الشديدة البياض. وأمي لا تأبه لشعر لالة ميمونة. مشغولة بحالها، ولكن لالة ميمونة تسترسل في حديث طويل لا نهاية له، وهي تتظاهر بأنها لا تُكلم أحداً. تقول شعري ماله؟ باسم الله عليه. لم يعرف التساقط. أنا أُحَافظ عليه. زيت الزيتون

أوصى عليها الرسول وقال أكلاً وذهناً ونوراً في البيت. ونحن نأكلها. سيد العثماني الله يخليه لي لا يأكل الزيت الرومية. نوارة الشمس قالوا. والزيتونة الحبيبة عود من تراب الجنة. واليوم الحمد لله على الكهرباء. ما عاد أحد يشعل الفتيل أو القنديل. وشعري ماله؟ غزال. ربي يخليه لي. طويل ومْسبْسْب ولونه تَيْعْشّقْ. خايفة عليه من عينين الحساد. عين الحسود بحال النار، تتحرق، قطرة من سم. نغطيه باش ما يشوفه حد. يشوفه غير سيد العُثماني. وأنا منين تزوجني كانت أيام العز. سيد العثماني معلم نجار كل شي تيعرفه. خدم فديور الكبرا ودار المخزن. قال لي كان بزرقه، وعنده الخدامة والمتعلمين. وسيد العثماني تيحبني. عمره ما غيب على الدار. واحد المرة زهق لسانه وحكى لي قصة وقعت له قبل ما يتزوجني. قال عشق النطرانية. زمان أيام الاستعمار. كان تيخدم في دار النصراني. والنصراني تيخرج للخدمة. عسكري. وسيد العثماني مع الخدامة في الدار، تيصنعوا المريونات وخزانات الكوزينة وبيت النعاس. أعجبته النصرانية، وقال لها يا مدام، وضحكت وقالت له يا مسيو. فرح. قال لي فرح، وكان ما زال ما خطبني. وقالت له أن يأتي في الليل، فالرجل زوجها سيبيت في مدينة أخرى. طلبت منه أن ينهي أشغاله ويذهب، ثم يعود في العاشرة ليلاً. وسيد العثماني قال أبواب المدينة كانت تغلق، ولذلك ذهب إلى الملاح وشرب بعض الكؤوس من الماحية في انتظار العاشرة. وقال طريق دار الدبيبغ كانت كلها جنانات، وشوك، ووديان. طريق صعيبة وبالليل لا

يستطيع أن يقطعها، ومع ذلك غامر. وصل إلى دار النصراني ووجد باب الفيلا مفتوحة. دخل. هذا ما قالت النصرانية. تسلل بين الأشجار إلى غرفة نوم النصرانية. كانت الليلة قمراً وكل شيء ظاهر. قالت له تعال. سمع صوتها من الفراش. فجأة أصابته الرصاصة، وسمع ضحكاتها. آلمته ساقه وخرج من الفيلا وهو يعرج. ويتحسس دمه الفوار. هبط إلى الملاح وهو يعرج، وهناك أخرجت اليهودية الرصاصة وملأت غور الجرح بالمواد الطبية. نام سيد العثماني واستيقظ في الصباح ليصعد إلى دار الدبيغ. متحاملاً على جرحه. جاء الخدامة والمتعلمون وبدأ يعطيهم الأوامر حول الشغل. خرج النصراني وفي يده طاسة القهوة. صفر صفيراً طويلاً وقال له أنت هنا؟ وقال له سيد العثماني ولماذا لا أكون هنا؟ جئت لمباشرة العمل. والنصراني قال له ألم تأت إلى الدار البارحة في العاشرة ليلاً؟ وسيد العثماني قال له لا. ذهبت حالما انتهى الشغل ولم أعد إلا هذا الصباح. كان سيد العثماني يغني إحدى أغاني زهرة الفاسية، ويتظاهر بأنه مبتهج ونشيط في عمله، رغم تكتمه على الآلام والجرح. والنصراني تعجب. ولكن سيد العثماني قال له أَعْتَذر، سأذهب في الثانية عشرة، ولن أعود إلا بعد ثلاثة أيام. لَدَيَّ مناسبة عائلية. والنصراني نظر إلى وقفته العادية، وإلى ساقيه، المكان الذي اعتقد أنه سدد نحوه الرصاصة، وتعجب، وقال موافق. عد متى تشاء. حكى لي سيد العثماني هذه الحكاية وهو يتحدث عن حروب الرجال، ويقول حروب الرجال أكبر من حروب النساء، ولكن أنا طوعته، اليوم لا

يبتعد شبراً عن الدار أو الحانوب، واليوم صحته عيانة، والدنيا على قد الحال. ما عند حد فين يزيد هم حد. كل واحد عنده همه. أنا غير طلعت للسطح نسرح شعري تحت الشمس. ومنين تزوجني، يا خسارة، كنت باغية بنية تكون بحال القمر، وتجيب من زيني وزعوريتي، ويكون شعرها من شعري. ساعة خشارة سيد العثماني عاقر. وأنا صبرت. رجلي ودم وجهي وعنايتي. قلت نربي شي بنية وقال لي ما بقى غير أولاد الحرام. وأنا سكتت وحمدت الله. بقيت نشوف شعري في شعر بنية نمشطه لها ونظفره ونشم فيه ريحة الزيت. وشعري ماله؟

وأمي تترك الغسيل في الآنية البلاستيكية الخضراء، وتنسل نحو باب السطح. تتظاهر بأنها قد نزلت وتظل مختفية وراء الباب تسمع كلام لالة ميمونة المسترسل، بعد أن ظنت أنها ستسكت بمجرد أن ترى انسحاب أمي. والمرأة لا تسكت. تقول كلامها لنفسها، أو للجدران، أو للسماء، وحتى للمؤذن الذي يطل برأسه من زوايا الصومعة الأربع ويسترق النظر إلى النساء على سطوح المنازل قبل أن يرفع عقيرته بالأذان. والمؤذن يطل من الزاوية المقابلة لسطح دار سيد العثماني، ويتوقف طويلاً وهو ينظر إلى شعر لالة ميمونة الأصفر المسرح، وهي ترفع رأسها نحوه من حين لآخر وتقول كلامها. يبتسم لها فتخفي عينيها في هالة الشعر المسبسب وتنظر إليه من بين الخصلات وتضحك، ثم تستمر في كلامها.

أمي لا ترتاح. يعذبها كلام لاَلّة ميمونة. امرأة لسانها أعور،

وكلامها جارح. تجاوزت الخامسة والأربعين وما زالت تتصابى. وسيد العثماني يقول لم يرزقه الله الضناية لأن المرأة عاقر، ولا يجرؤ على أن يقول هذا بمحضرها.

الشجرة التي احترقت، لم تقل. ولسان لالة ميمونة هو الذي يقول، لكن أسرار أخرى تظل مُحَجَّبَةً وراء ما لا يقال. أحياناً يَلْتَبِسُ كلام لالة ميمونة. وسيد العثماني يسأل أمي عن أخبار السي قاسم، ويظهر عليه كأنه يعرف شيئاً عن مكانه. ويقول متظاهراً بطمأنتها:

- دابا يرجع. لا بد ما يرجع. ما عنده فين يمشي.

تقول له أمي:

- الرجل مريض وأنا خايفة عليه.
- صحته زيانت. يمكن تكون زيانت.
- شفتيه؟
- غير قلت يمكن تكون صحته دابا مزيانة. فين عندي نشوفه؟
- وفين تياكل وتينعس؟
- الناس كلهم تياكلوا وتينعسوا. ما مات حد بالجوع.
- أنا خايفة عليه.
- قلت لك دابا يرجع.

يلقي كلماته باستعجال من باب السطوان حين يكون داخلاً إلى الدار ويلتقي بأمي وهي تريد الخروج. تنتقل نظراته بين أمي

وبين الغرفة السفلية التي تجلس عند عتبتها لالة ميمونة، تسمع كل شيء. يقطع كلامه وكأنه يهرب ليعود إلى صباحه المشرق الجميل في وجه لالة ميمونة. يُصَبِّحُ بصوت مرتفع وكأنه لم يرها منذ أيام، وقد خرج للسوق من ساعة، ويخرج من عب الجلباب علبة بلاستيكية شفافة يظهر منها التفاح.

ـ تفاح بلدي يْرْجّعْ الروح.

تقول له متأففة:

ـ أيوا.

ـ هذا تفاح لخدود التفاح.

ـ أحشم. إحنا ما بقيناش وحدنا في الدار.

ـ التفاح ماشي عيب. هذي خدود امرأتي.

ويدخلان الغرفة.

ذاك الصباح، بعد غيبة الوالد بأيام، أخرجتُ حافظة من إحدى الحقائب وأخذت أقرأ بعض الوثائق الخاصة بالوالد. ثم وجدت الألبوم. صور قديمة بالأسود والأبيض من بينها صورة العرس. أمي وأبي عريسان. هو يرتدي الجلابة البيضاء والبلغة الزيوانية، رأسه عار. يبتسم. يبدو فرحاً ومزهواً بعروسه، يمسك بذراعها وهي ترتدي البذلة البيضاء المشبكة التي تزداد اتساعاً وهي تنحدر. وجه أمي صغير وضامر، بسمتها شاحبة وهي تقف إلى جانب قامته الفارعة السمراء، وعينيه المتألقتين. صورة أخرى نظهر فيها أنا ومنير صغيرين، وهو يمطط وجهه نحو ناحية في

حركة مضحكة، ويدانا متماسكتان. ثم رأيت على صورة أخرى الوالد يتوسطنا أنا ومنير، وعلى الخلفية يظهر نمر متوحش وقد فغر فاه واتسعت عيناه، وعند أقدامنا يبدو الفسيفساء الذي يرصف الطريق. تذكرت ذلك القلع في غرفة التصوير، وصورة النمر الكبيرة على الحائط. كنت في العاشرة. خرجنا أنا وأبي ومنير ليشتري لنا الوالد بعض الملابس، ثم قادنا إلى قيسارية يوجد بداخلها استديو للتصوير. جلسنا في إحدى المقاهي. قال يريد أن يشرب قهوة. وأنا ومنير شربنا المونادة. ما زلت أتذكر.

داخل الألبوم وجدت صوراً غير مرتبة، لم يُلصقها الوالد على الورق اللاصق المغطى بطبقة ورقية شفافة. كانت مضمومة إلى بعضها. صورة للوالد مع جماعة من الجنود. يرتدي الزي العسكري ويحمل في يده لفافة ملونة، وأحد الجنود يقطع موزة من العرجون وهو يبتسم للعدسة. وصورة أخرى يظهر فيها الوالد عاري الصدر، يرتدي الشورط، وقدماه حافيتان. يحمل فأساً ويقف بجوار وجه طالما أحببناه وعانقنا «اختياره الثوري». ركام من الحجارةو وصاحب الوجه المستدير الباسم، وشعر الحاجبين الذي يلتقي عند أعلى الأنف، يحمل فأسه بيده اليمنى ويضع ذراعه اليسرى على كتف الوالد. هذه «طريق الوحدة». ووجه الوالد غاب والوجه الآخر قتل. قالوا أخفوا جثته في برميل من القار. قتلوه بعد أن اختطفوه من أحد شوارع باريس. كان الوالد يحدثنا عن مشاركته في بناء طريق الوحدة، يوم تحمس الشباب لخلق مغرب جديد. الوجه الذي قتل ما زال رمزه ناصعاً. الوجه

الذي غاب، ها هو جرحه الموجع ينز دمه في الليل والنهار. وتتوالى الصور. صورة تجمع بين الوالد وأمي ومنير، وصور أخرى لمنير في عامه الأول وهو يحبو، وللوالد والوالدة. كان أبي قد تزوجها سنة ١٩٦١، قبل مقتل الشهيد بأربع سنوات، ثم أنجبا منيراً بعد سنتين من زواجهما، ثم ولدت أنا في نفس السنة التي استشهد فيها الشهيد، وكان الوالد يتمنى أن أكون ذكراً حتى يسميني باسم الشهيد. أمي فرحت وهو لم يفرح ولم يحزن، ولكنه كان يريد أن أكون ذكراً حتى يسميني باسم الشهيد. قال هذا الكلام ذات مرة أمامي، وهو يتكلم مع منير ويروي ذكرياته في طريق الوحدة. يضحك ساخراً ويقول أصبحت تسمى في بعض الأفلام الأجنبية التي تصور في المغرب «طريق الكيف». يسخر ويقول الطريق واحد ولكن أسماءه متعددة. كل يصنع أهدافه في نفس الطريق. ثم يروي الوالد مسلسل أعوام المحنة التي عاشها المخدوعون بوهم الاستقلال، كما كان يقول.

منير ظل جالساً بجانبي. من حين لآخر أنظر إليه وأراه لا ينظر إلى الصور. يبحلق في الحيطان والسقف ويبتسم، وشفتاه تتحركان وكأنه يكلم نفسه. أطلعه على صورنا نحن الأربعة ولا يلتفت نحوها.

ـ أنظر. منير ونعيمة الصغيران.

يشير بيده أن أتركه غارقاً في عالمه، وتظهر الحروق التي تركت آثارها على باطن الذراع والساعد.

ـ أنظر إلى صورة منير الصغير.

لا تنقطعُ الإبتسامة وعيناه تجولان بين السقف والجدران.

ـ هذه نعيمة. اختك الصغيرة.

ـ . . .

ـ والوالد، ألسي قاسم. أنظر.

يستدير بجسَده وهو يتكيء على المخدة إلى الحائط.

ـ منير. هذه صورة أمي. الوالدة، لالة رقية.

ثم أقَرّب منه صورة الوالد مع الشهيد. أعرف أنه يعرف صورته. كنا قد قرأناها بين سطور الكتاب، ورأيناها على بعض الكتب والجرائد، كما قرأنا سيناريو عملية الاعتقال في رواية قال عنها البعض إنها حولت إلى شريط عرض في فرنسا. أشاح بوجهه عن الصورة دون أن يراها، وظل يبتسم.

ـ هذا أبوك مع الشهيد.

لم تُنَبِهْهُ كلمة «الشهيد» وظل مأخوذاً إلى عالمه ربما أكثر مما كان. ثم طويتُ الصور والوثائق وأعدتها إلى الحقيبة، حين سمعت خطى أمي على الأدراج.

مرت أيام حتى صعد إلينا سيد العثماني. حاول أن يُكَلِّمَ منير، ومنير ظل ينظر إليه بدهشة ويبتسم. سأله متى يعود إلى دراسته بالكلية ومنير لم يجب. كان يتحاشى الكلام معي. أمي سَوَّتِ المنديل الأزرق على رأسها الذي بدأت تظهر عليه بعض الشيبات على المفرق. نتبادل النظر أنا وأمي وكأننا نتوجس من هذه

الزيارة. بدا سيد العثماني مرتبكاً وهو يحاول أن يخلق لغة للتواصل مع أمي. من حين لآخر يسألها:

- إيوا لا بأس؟

وهي تقول له:

- لا بأس.

ثم يعود الصمت الثقيل ليشكل حاجزاً بيننا وبين سيد العثماني. وأمي تقول له:

- إيوا يا حبيبي، راك عارف كل شي.

وهو يقول:

- عارف.

ويسكت لحظة وهو ينظر إلينا بعينيه المتربصتين. طالت لحظة التوجس وظننت أنه سيطلب منا أن نُخْلِي الغرفة، ولعله يبحث عن بعض الأعذار التي يبرر بها هذا الطلب، سيما وهو يعرف أن لا مكان لنا نذهب إليه، ولا سقف يؤوينا. وأمي لم تكن تطلب منه أية مساعدة. تتدبر أمور الإنفاق علينا بطريقة أو بأخرى. تبيع بعض الخواتم، أو بعضاً من الأثاث. قبل أيام جاءت برجل رأى الثلاجة وتَساوَمَ معها، ثم جاء بمن يأخذها ودفع لها بعض الأوراق النقدية.

ماذا سيقول؟

وماذا لو طلب منا إخلاء الغرفة؟

أين سنذهب؟

أحسست أمي متوترة الأعصاب. تستدرجه من حين لآخر بقولها:

- إيوا يا حبيبي؟

وهو يقول لها:

- إيوا يا بنت أختي. كان.

ويسترسل في حديث عن أخته، جدتي التي لم نرها. وأمي تحاول أن تعيد الحديث إلى مجراه:

- اليوم هَمّ آخر. هذا زمان صعيب. وأنت شايف حالتنا.

وكأنها تقطع عليه طريقاً لا يريد أن يجهر به، إذا كان ما يريد هو أن نخلي له الغرفة. وهو يتنهد، ويتظاهر بمشاركتها أثقال الهموم التي تضغط على القلب. ثم يتنحنح ويسوي جلسته على السداري.

- والسي قاسم، ما عرفتوا فين هو؟

- كيف نعرفوا يا حبيبي؟

- الله أعلم بعلامات الحق، يمكن عرفت فين هو.

تتلهف أمي وتقترب منه:

- فين؟

- واحد صاحبي قال لي.

- قال لك فين؟

- مسكين السي قاسم.

- صاحبك شافه؟

ـ غير سمع .

ـ آشنو سمع؟ آش قال لك؟

ـ قال لي يمكن يكون عايش مع القطوط والحماق فـ «سيدي بونافع» .

ـ سيدي بونافع؟

ـ يمكن يكون ثمة . مشيوا شوفوا .

طفرت الدموع من عيني أمي . نهض سيد العثماني يريد أن يهبط عند زوجته لالة ميمونة . قال وهو يستدير عند باب الغرفة :

ـ نمشي معك؟

وأجابته أمي :

ـ نمشي نشوف . خلي نعيمة تمشي معايا .

وسمعنا خطاه هابطة على الأدراج . أخذت أمي تبكي وتشهق . اقتربت منها ولم أجد ما أقول . تقرحت عيناها . نهضت ، وارتديت الجلباب وطلبت مني أن نذهب إلى ضريح سيدي بونافع . في الطريق كانت تبكي . البخار يتصاعد من اللثام الذي بللته الدموع ، وأنا أمسك بذراعها ونحن نمضي .

ها هو الباب الكبير، وسقاية الماء على الجانب . صعدنا الأدراج : القبور مُنْبَثَّةٌ على أرضية الضريح ، على شكل مستطيلات زليجية . القبة تقابل الباب الذي دخلنا منه ، والباحة فارغة ما عدا قطط تتسلق الأسوار العالية . نزعت أمي الصندل ونزعت حذائي . قطعنا الباحة ووجدنا باب القبة مغلقاً . سمعنا صراخ المجانين

وصليل السلاسل. اقتربنا. ممر طويل مظلم تتوزع على جانبيه أبواب واطئة لبعض الغرف. تبادلنا النظرات. أيمكن أن يكون هنا؟ هذا ضريح سيدي بونافع والسي قاسم لم يظهر. هل يعيش الوالد هنا مع الموتى والمجانين والقطط؟ أهكذا يقترب الوالد من المغيب بعد أن طفحت الكأس؟

تراجعت أمي نحو الباحة وتبعتها. كنا نسترق السمع لعلنا نسمع صوته. وقفنا لحظات وسط الباحة دون أن يلحظنا أحد أو نرى أحداً. وحين هممنا بالخروج أطل علينا رأس رجل من الممر الضيق، ثم ظهر الرجل بطاقيته وجلبابه القصير وساعديه المشمرتين.

ـ ماذا تريدان؟

قالت أمي:

ـ نسأل عن السي قاسم. هل عندكم رجل اسمه السي قاسم؟

ـ السي قاسم؟ متى كان اسمه يبدأ بالسي؟

ـ قاسم. قل قاسم.

ـ لعله ناعس في الغرفة.

ـ هل هو هنا؟

ـ من أنتما؟

ـ أنا امرأته، وهذه بنته.

ـ لا. لا يمكن. قاسم الذي أعرف لا يمكن أن تكوني أنت امرأته.

ـ لماذا؟

ـ قاسم نقاش شواهد القبور، صاحب القطط؟

ـ بغيت نشوفه. هذه نعيمة بنته. يمكن يكون هو.

ـ من هو؟

ـ قاسم. السي قاسم.

من الممر الضيق المظلم أطل الرأس وتراجع، ثم ظهر الجسد العاري، والرسوم والألوان. طيور وحيتان وقطط وثعابين مرسومة على الصدر والظهر والساعدين. والعينان. كانتا عينيه. يرانا أنا وأمي ويتراجع إلى ظلمة القبور. وتبعنا. رأينا ظلام الغرفة التي في عرض متر وطول مترين، والقبور الزليجية التي فوقها ينام أو يقعد ليأكل، وإبريق الشاي. كان مكوماً فوق لفافات الجرائد والورق الكارتوني. هو. إنه هو. هذا هو الوالد. عيناه وسحنته التي تهدمت، ونظرته الكسيرة. لم يرفع نحونا ناظريه. بكى أو ضحك ولم يقل. وأمي قالت:

ـ السي قاسم.

لم يرفع نحونا عينيه.

ـ ها نعيمة جات. يا الله معنا. ارجع لدارك.

والرجل صاحب الجلباب القصير والطاقة يسترق النظر من ظلمة الممر ويسمع كلماتنا. اقتربت أمي من الوالد وحاولت أن تمسك يده. نفر منها وبدا عابساً.

ـ أنا امراتك آ السي قاسم.

ـ أنا رميت امرأتي في البحر. ماتت في الباخرة، وهم وضعوها في الصندوق. وأنا رأيت الحوت يبتلع الصندوق.

ـ ها أنا رقية. ها بنتك نعيمة.

ـ وكانت قطة. علمتُ القطط ألا تأكل صغارها، وأن تضحك وتغني وتنتقم إذا اعتدى عليها أحد. علمتها ألا تسرق حروفي.

ـ بُسْ نعيمة. وأسألنا عن ولدك منير.

ـ ها ألواني. ألواني هي التي سوف تنتشر.

ـ يا الله معنا للدار. انهض.

ـ والقطط؟ هل آخذها معي؟ كيف أجمعها من سطوح المنازل؟ والشواهد؟ هل آخذ هذه القبور معي؟ داري في البحر. أنا سأعود إلى البحر ومعي النسر والثعبان. ها هما.

وأمي سقطت على الأرض. وأنا بكيت. وهو قال لنا:

ـ باراكا من صداع الرأس. النسر تيسمع كل شيء.

ثم تدخل صاحب الطاقية والجلباب القصير وقال:

ـ أنا السي الهاشمي. مقدم السيد. سيدي بونافع. الرجل عيان. خليه وسيروا فحالكم. واش عرفتوه؟ واش بالصح الآلة هذا رجلك؟ هذي بنته؟ يمكن تْشبّهْ لكم. سيروا وخليوا قاسم يرتاح.

وخرجنا.

بعد أيام أقنعتْ أمي سيد العثماني بأن يذهب إليه. هبطت إلى السفلي وبكت وتَرَجَّتْ لالة ميمونة أن تسمح لسيد العثماني بأن يذهب إلى سيدي بونافع لرؤية السي قاسم ومحاولة إخراجه من الضريح وإعادته إلى الدار. ولالة ميمونة قالت أعجبه حالهُ ثمة، يمكن لقي راحته. وأمي توسلت. ثم ذهب سيد العثماني ولم يعد.

لم يرجع سيد العثماني إلى الدار. تأخرفي عودته. ولالة ميمونة بكت. صعدت إلينا وهي تقول بأن روح قاسم تجذب إليها كل من يذهب لرؤيته؟ وأمي تُهدئها وتقول لها سيرجع، ولعل شغلاً شغله وسيعود. ثم جاء الليل. ولالة ميمونة نتفت شعرها، وأَجْحَظَتْ عينيها. أصابتها حالة صرع فجاءتها أمي ببصل تشممها إياه، وحين فتحت عينيها المغمضتين سألت عن سيد العثماني فقلنا لها لم يعد، وباتت معنا في الغرفة الفوقانية وهي تنتف شعرها، وحين تمنعها أمي تَصْرخ وتُبْرِزُ أظافرها في وجوهنا.

منير كان يرى كل شيء. يبتسم لفراغه ويكلم أشباحه وهو يحرك شفتيه، دون أنْ يلتفت نحو لالة ميمونة أو نحونا.

في الصباح ذهبت أمي مع لالة ميمونة إلى ضريح سيدي بونافع. وقال لها الوالد كلاماً شبيهاً بما قال لنا. ونهرها السي الهاشمي وطالبها بالابتعاد عن الرجل الذي تدعي أنه زوجها، وتريد أن تخرجه من الألفة، وقال لها من يألف الألفة سوى الأُلاَّف؟ رجل أَلِفَ قططه. خطه مزيان، وتيعرف يحفر على الرخام. خليه وسيري فحالك. وقال لم نر رجلاً اسمه سيد

العثماني، وهل كلما غاب رجل عن داره تأتين إلى هنا لتسألن عنه؟ يكفي صداع الرأس مع الحماق. واش سيد العثماني أحمق؟

عادت أمي ولالة ميمونة باكيتين. والمرأة قالت لأمي لا بد أن تخرجوا من داري. كنت مرتاحة وأنا ورجلي ومن النهار اللي دخلتوا فيه هاذ الدار ما شفت الراحة. وها أنا بلا رجل. رُوح قاسم أخذته. مشى وما عرفت فين نلقاه. وعند الظهر صعدت إلى السطح وعَرَّتْ رأسها وأرخت سالفها على الكتفين، وأخذت تبكي وتصيح وتقول ها شعري قطعته. ها خدي نندبه بالظفر. ها صدري عريان قدام العادي والبادي. بقيت امرأة بلا رجل. مشى وما رجع. ميمونة بلا سيد العثماني بحال الطير الغريب النواح، بحال الشجر بلا تمر، بحال البكا بلا دموع، بحال السحابة بلا شتا. ها شعري. وتَنْتِفْ شعرها وترمي بالنتف على أرضية السطح. وحين رفعنا رؤوسنا رأينا نساء كثيرات يطللن من السطوح المجاورة. رؤوس نساء تطل، والمؤذن يطل من الصومعة، وقبل أن يؤذن قال لها حرام، الله يرحمه. الستر. ستر المرا رجل. المرا المستورة بالرجل خير. شوفي فينا. ورفعت عينيها إلى عيني المؤذن. وتناظرا. هدأت. ارتخت وتحللت مفاصلها. حملناها أنا وأمي إلى الغرفة الفوقانية ومددناها على الفراش، وحين أفاقت ظلت تصرخ وتقول سيد المؤذن قال لي. أنا زعرة وأعجبه شعري. فين سيد العثماني؟ عنداك يطير له. والمؤذن كان يغمز لي وأنا نتسرح شعري ونتخلله بالزيت البلدية أو نطليه بالحنا. وأنا ما شفته. سيد العثماني ما قاليش. عنداك يكون رجع وأنا نتقول هذا الكلام

ويسمعني؟ عنداك المؤذن يكون جا من سيدي بونافع. ريحة النافع. شمي. شميت ريحة النافع. السيكران. ريحة الجاوي المكاوي. ريحة سيد العثماني. ريحة القبر والأحباب وريحة الموت. ريحة لالة ميمونة بشعرها الأزعر. ريحة بوخرارب. ريحة الشمندل، الشقرقم، الشبندر، الشململ، والشبقبق، الشـ. . . وتغيم عيناها تغيب تماماً.

ومنير لم يقل. متى يقول منير كلمته كي أقول لكم أين كان ومن كوى جسده بأعقاب السجائر، ومن شَوَّهَهُ ورماه على حافة الصمت والابتسام الكريه؟ حين يتكلم منير ويقول لي سأقول لكم.

الضريح

«ليس فمي إلا فم الشعب، فكلماتي قاسية تخدش أسماع المتأنقين»

«نيتشه ـ هكذا تكلم زرادشت»

عين.

كاف.

لام.

راء.

تَحَرَّفْ أيها الحرف وأنا أسكب فيك ماء عيني. مِلْ على ذاتك أوْصِرْ مجرى للإنحناء والتهاوي، للشموخ المحمول على امتداد لا نهائي. أشرب من دمي وضوء عيني وأنهض حتى أرى فيك صلاتي ونشوتي والماء الذي يترقرق قطرة قطرة بين تجاويف الصخور. لك صوت القطرة، وعبق المداد المضمخ برائحة تحتية، وانتشار في المدى، فوق الصفحة، خارجها، فوق المقبرة والمدينة والصوامع والدروب، فوق ضوء العين، في الذاكرة التي تقلب ضِداً على الجاهز والمحفوظ. وانتشارك نور عقل وصفاء رؤية ولذة غياب في الحضور. بيني وبين الحرف حرف حتى أصل، وأحقق مبتغاي.

ألف .

باء .

لام .

سين .

واو .

نون .

كلها كانت حروفي وما تزال، وأنا أنحني وأميل مع إِمَالَة الحرف حيث يميل. للحرف أرضه وسماؤه، أنهاره وناره التي تحرق العالم وتبدأه من الرماد. وأنا كان لي حرف، والحرف وطن، جنة أو جهنم، ابتعاد أو قرب، وحشة وتردد بين اليقين واليقين، اكتشاف لبكارة الأشياء، تَوَحُّشٌ واسْتِيحَاش، دخول في صفاقة المُحَجَّبِ واللامرئي. والحرف هو البدء. صدقني أيها الحرف فأنت نارنا التي بها نحترق. الجريدة قالت، والكتاب قال، واللافتة والمنشور السري والدفتر المدرسي والوثائق العسكرية والمخطوطات والهيروغليفيات، وخطاطة بداية الحرف، وشاهدة القبر واللثغة الأولى والطير الزاعق والمزقزق والمغرد والبحر والرياح وانكسار الأشياء والتوجع. كلها حروف مكتوبة أو منطوقة وأنا أخطها على نقا الرمل أو فوق بياض الرخام. بَادِئْنِي أيها الحرف وقل لي. أَدْخِلْنِي بين حناياك وطِرْبِي نحو أرضك وسمائك، أقبيتك ودروبك الموحشة وأودية النسيان، حيث يكون البدء. أَحْرِقْنِي بنارك.

نار اللام،

والسين،

والنون،

والباء.

هـذا ماء عينـي وهـذا ماؤك أيهـا الحـرف. ماء جاف لا مرئي، ينسكب ولا أراه وهو يرانـي. تَهَلَّلْ يا ماء الحـرف، إِسْتَدِرْ أو صُلْ في امتدادك. ها هو الأزميل.

كان لحظتها ينحني على الرخام، يُقرب ناظريه منه ويرى لوحة الرخام البيضاء السميكة التي في سمك الثلاثة سنتيمترات، وفـي طول السنين سنتيمتراً، وعرض الثلاثين. رخام اصطناعـي قال، مادة عجينية، وتذكر قبور النصارى، والرخام الإيطالي. وأين هم النصارى اليوم؟ حتى إلى المقبرة لا يأتون. قبورهم صارت غريبة ليس لها أهل. انقضى زمن الورد. الصلبـان والأكاليل المبعثـرة وشرائط الحرير الحمراء والصفراء، وكتابة الأشعار، والرائحـة. السواد هنا كان. القبعات السوداء، والمناديل الشبكية السـوداء التي تغطي وجوه النساء، والوقوف الصامت الأسود، حتى الهمس كان يتكلم لغة السواد، والرائحـة الأُخْـرَوِيَّة التـي هي مزيج من عطور النساء وفوح أكاليل الورد والموت الـذي ينشـر سواده هو الآخر. جسد الميت في جنة، وعالمـه معلـق في فراغ سديمـي. ضحك قاسم وقال، ثم أنطوى على جسده وتذكر «الميعرة». كان يراهـا من طريق «الجنانـات» بادية بقبورهـا البيضـاء المتراصـة

الناصعة تحت أشعة الشمس، كما يرى بابها من فوق، عند «باب الملاح» حيث كانت المدرسة اليهودية، والكوميسارية التي يقف عند بابها البوليس النصارى، وسيارات البوليس القديمة السوداء، ومحطة الأوتوبيس وقربها محطة العربات التي تنقل الناس من «باب الجنود» إلى «باب الملاح» وخَيْلُهَا تَحْزَنُ والحوذي لا يكف عن التلويح بسوطه في الهواء، ثم أمحت كل ملامح تلك الساحة وغطتها ساحة القصر. لكن «الميعرة» ببياضها الخجول وبابها المغلق دائماً، ظلت في مكانها، كما ظلت أرواح اليهود تسمع صراخ مساومات الباعة في سوق الخوردة. من هناك اشترى قاسم بعض الأشياء: ملاقط، موقد للفحم، رواية مجلدة لبلزاك، كأس عتيقة كان يشرب منها أناس لا يعرفهم، واشترى مخطوطاً كُتِبَ بالصمغ بخط مغربي، وعليه حاشية بالمداد الأحمر، وتعاليق، وتشطيب. نُتَفٌ من كتاب. أوراق متفرقة لا تخضع لأي ترتيب، تآكلت جوانبها وتهرأت بعض الصفحات. قرأ ورقتين وعرف أن الكتاب يتحدث عن نكاح الرجل للمرأة ونكاحه للحيوان وأحكام ذلك في أقوال الفقهاء. وضع الأوراق في أحد الأدراج ولم يعرف ما عليه أن يفعل بها. فكر في استخدامها لتزيين أحد الجدران. أنتقى صفحة كثيرة التشطيب والخدوش، مهترئة الجوانب، على نصها حاشية بالأحمر سطورها تميل، أَطَّرَهَا بورق أبيض مقوى ووضعها تحت زجاج ومسكها بدبابيس. زين غرفته الخاصة في البيت بهذه اللوحه، إلى جانب «ديوان الخط العربي» وكتب أخرى.

النصارى ماتوا.

واليهود ماتوا.

وأهل فاس توالت تواريخهم وملأوا المقابر. والخريطة تغيرت. كل شيء تغير. لا زوار لقبور اليهود والنصارى. لا صلبان ولا أكاليل. لا إنجيل ولا توراة. أنتفت كل الأقاويل. الأحفاد نسوا الأجداد وتوزعوا في الأرض. عادوا إلى إسرائيل ونسوا قبور أجدادهم هنا، حتى بياضها الذي كان ناصعاً فَقَدَ نصاعته ولم يعد أحدٌ يشاهد السيارة السوداء المغلقة الأبواب والنوافذ ذات الستائر والشرائط الحمراء، المكللة بالورد، وهي تسير ببطء ومن خلفها المسيرة السوداء الصامتة. والأحفاد يعودون أحياناً، عودة مضادة إلى هنا، على شاشة التلفزيون، أو مع أخبار الجرائد، نجوم في الغناء والسياسة صاروا، ولعل قبور الأجداد تسمع وتتذكر.

الكأس.

ها هي الكأس الكبيرة المخططة بالأسرة والتزاويق،

وأنا اشتريتها من جوطية «باب الملاح»، فمن كان يشرب منها؟ كم عدد الرجال والنساء الذين شربوا من هذه الكأس؟ نصارى أو يهود؟ هذه الجوطية تعرض أشياء قديمة ترجع إلى العهد الاستعماري. والكأس الكبيرة المخططة بالأسرة والتزاويق لا يشرب منها إلا ذوو العز والشان. الفاسيون الأثرياء يشربون من «كاس البلار» شايهم المنعنع. للشرفاء الفاسيين كأسهم،

وللشرفاء اليهود والنصارى كأسهم، وهذه كأس بلور أخرى، ربما كانت تشرب فيها الشامبانيا أو الكوكتيل. لا يهمني المشروب. أنا أفكر في الشارب، أو الشاربين. أتخيل الأسماء والوظائف والهموم مع الزوجات، ولِيَزارَابْ، واللثغة العربية التي تعلموها من قواميس جاهزة كانت الثقافة الاستعمارية قد وفرتها لهم. Rajel. m'rra. le sultan le caid. le makhzen . هو ما بكاش. هي مغيضة. - Les bérberes. Les fransawines . شوف. Fransa m'zyana.

يضحك قاسم. يكون الرجل الآن قد مات أو قتل، أو يعيش شيخوخته في إحدى الضواحي الباريسية. هل كان يشرب من الكأس وهو يضحك، يُخفي بكاءه؟ هل كان ثَمِلاً بعد أن أرسل من ألقى القبض على أحد الوطنيين؟ ربما كانت يده ترتعش، وعروقها الزرقاء نافرة. يرتدي لباس العرس، والبابيون. هل كان عريساً يُقَارِعُ أصدقاءه كأس المحبة والرفاه والبنين؟ هل كان يشرب نخب التخلص من الملك ونفيه إلى مدغشقر؟ هل كان يغص في شراب كأسه وهو يستعيد أخبار الانتفاضات في الجبال والمدن؟ وهل كان شاباً أم عجوزاً، رجل أو امرأة؟ يهودياً أو نصرانياً؟ أم أنهم جميعاً قد شربوا من هذه الكأس؟ هذه هي الكأس ذات التزاويق، لم أشرب منها وقد رأيت فيها الإرتعاشة وعروق يد نافرة زرقاء. رأيت فيها القبعات العسكرية، وأحذية الجنود الشقر التي دقت طريق «الطَّالْعَة» و «العطارين» «والرصيف» و «باب مولاي إدريس». رأيت في الكأس الشعر

الأشيب، وسمعت منها الضحكات، و «المارسيلياز» ورأيت صليباً تكسر، ورصاصة تخترق المحراب وصدر الفدائي.

الكأس قالت لي.

أَسِرَّتُهَا وألوانها العجيبة هي التي قالت، وحافتها المثلمة. الشفاه التي رشفت منها والأيدي التي أمسكتها. تاريخ غير رسمي ولا مكتوب تكتبه هذه الكأس. وأنا رأيت قاعة الاجتماعات العسكرية، وقامة المقيم العام المنتصبة، وتمثال اليوطي النصفي، والرصاص الذي تدفق من عيون وضحكات «الكوم» و «لا ليجو» و «ساليكان»، والمطر، وعرائض العلماء، وعيون الخيانة باعت واشترت، وحضرت هنا وهناك. أهذا هو تاريخ الكأس؟ ولماذا لا يمتد هذا التاريخ ويتوقف عند زمن صار منسياً؟ أختها «كأس البلار» تستطيع أن تقول كلاماً آخر، قد تمتد فيه ضحكة الماريشال اليوطي، وقد لا يتوقف ذلك الزمن ويأتي إلى عصرنا. لكني أكره مثل هذه الكأس. أقف أمام الرف الذي وضعت فيه الكأس التي اشتريتها من جوطية الملاح، وأرها، فتقول لي بعض الأشياء وأسمع شهادتها. لا أعرف أين راحت، ولا أين أنا الآن. لكني أتذكر. أتذكر يوم كنت أسمعها تقول.

وقاسم نسي الكأس، ونسي اللوحة التي رتبها من صفحة منتزعة من المخطوط الفقهي، كما نسي ديوان الخط العربي» وتذكر المقابر. القبب. المقبرة اليهودية. المقبرة الأوربية. مقابر أخرى يمكن أن تشارف أطلال المرينيين. أين تُفَضِّلُ أن تُدفن؟

في مقبرة القبب أو في مقبرة «سيدي بو بكر ابن العربي»، أم أنك تختار مقبرة «باب الكيسة»؟ لا مكان في ضريح سيدي بونافع. في تلك المقابر لا زليج ولا رخام. وفي الزاوية التيجانية، والزاوية الكتانية، كل القبور مضت على موتاها أربعون عاماً، فباعوها واستقبلت موتى جدداً وعليك أن تنتظر بموتك حتى تمضي أربعون عاماً على دفن أحد موتى قبور تلك الزوايا. لا بد من الانتظار. تشيخ وتهرم وأنت تنتظر الحصول على قبر زليجي تُسَاكِنُ فيه الموتى الشرفاء، وتشم رائحة البخور وأنت ميت، وتسمع الأمداح النبوية، وتتسلى باكتشاف بعض الصفقات، أو ترى عيون نساء مدهوشة وهي تطل من الحاجز الخشبي المخرم. على موتك أن ينتظر، فكل القبور قد بيعت. هل تريد أن تشتري قبرك أم أنك تترك ذلك للصدفة؟ قل. هل تريد أن تُدفن في مقابر العوام؟ أنت فقير وابن فقير. وهل لا تخاف أن تضايقك قطعان الماعز السارحة في المقابر وهي تأكل العشب من فوق القبور؟ والمشردون والليليون الذين يأتون لقضاء حاجتهم فوق القبور؟ ألن تضايقك الرائحة؟ لعل أحاديث شاربي «الشودسولاي» من القوارير البلاستيكية ستؤنسك، ولغط الفقهاء، ونواح امرأة تذكرت زوجها وجاءت إليه بصبيب قربة ماء الرحمة. لا تخف. القبور قبور. وأنا قاسم الورداني قررت أن أوصي بإحراق جثتي. تعرف لماذا؟ اختزالاً للمساحات التي تشغلها المقابر، ويمكن أن تصبح آهلة بالسكان أو مناطق خضراء. لو فعلت مثلي، وفعل الناس مثلنا، لصارت المقابر الواسعة مختزلة إلى أقباء أرضية عليها رفوف رُتبت

فوقها قوارير صغيرة شفافة تُظهر الرماد الذي بداخلها، والورقة المكتوبة الملصقة على السداد تبين الاسم والصفة والمهنة وعنوان الأهل. الورقة المكتوبة هي الشاهدة. لن نحتاج إلى رخام إيطالي أو آخر اصطناعي. سنترك الرخام للأحياء، وسنترك لهم مكاننا، ويمكن لملايين الموتى أن يتساكنوا في غرفة صغيرة لا تتجاوز بعض الأمتار. فلماذا المغالاة في احتلال المكان الحي، مكان الأحياء؟

العظام تصير تراباً،

والرماد يبقى هو الرماد.

كان ينحني على الرخام لا يطاوعه الإزميل. ينظر إلى الصفحة البيضاء وهو غارق في أفكاره. والألواح الرخامية تتراكم، وهو غير قادر على حفرها، ولم يعد يجد ما يأكل، أو ما يقوله للشرفاء الذين يتعجلون إنجاز الشواهد. تأخذه الأفكار ويصير مأخوذاً نحو عالمه الخاص. يسترجع في الضريح ما فقده في الأماكن الأخرى التي عاش فيها وهو يضحك أو يبكي. لا أعرف هل كان ضحكه بكاء، أم أنه قد نشر ألوان جناحيه وأنطلق في باحة الضريح كأنه يحلق أو يتحرر من لحظة كابوس، ثم صرخ الصرخة ونظر حواليه فلم يجد القطط. فكر في أنها تنتشر فوق سطوح المنازل أو تتسلسل إلى سوق الجزارين وتلمع عيونها لتضيء في عتمة الزقاق السقوف الذي لا تصل إليه أشعة الشمس بعد أن غابت وراء السحاب. قصب مُشبَّك. رائحة اللحم. جزار قبالة جزار. حانوت جزار

يجاور آخر. صفوف طويلة على جانبي الزقاق. مصارين. طحال. الكبد والأحشاء وقلوب خراف وثيران. لحم. نصف الدابة يمتد على جانب الحانوت. عظام. جلود. كفتة مطحونة بالبصل والبقدونس. قطع اللحم. العظم من تحت واللحمة بادية. عيون القطط هي التي رأت. ثم تسير القطط في طريقها وتشم عبق التوابل والبهارات من سوق العطارين. وحين تقترب من سوق الحناء تتغير الروائح: الحناء، الورد اليابس، الكُحْل، القطران، العطور الشرقية، ماء الورد والقرنفل، البابونج، حنوط الدفن. حياة وموت والقطط في طريقها تسير وترى وتسمع، ثم تعود إلى خِلِّهَا الوفي كي تقول له ما رأت وما سمعت.

والمدينة اليوم تتغير.

تغيرت وجوه سكانها.

الشيوخ والشبان والصغار، النساء والصبايا،

كلهم صارت وجوههم ذات تجاعيد حلزونية، مع انتفاخ بادٍ. بقع ليست كالبرص ولكنها تشبه قشور صدف المحار. حلزون أو محار؟ تحلزنت الوجود وغطتها طبقة من قشور منطفئة كأنها نَبْتٌ القواد في جناح عصفور. الوجوه وحدها، وربما الأجساد تستر تحولها الجلدي تحت الثياب ولا يريدون أن يقولوا الجلد كله تغير. بدأ الداء الغريب ينتشر، وسموه مرض فاس أو مرض الفاسيين، وكان أول ما لاحظه الناس هو اختفاء الضحكة وممازحات الباعة في الأسواق، ودلال الصبايا، ولعب الكرة في الأزقة الضيقة، وازدحام الطرقات. لا شيء من هذا. لم يعد من

أحد قادر على الابتسام. والثرثرات ولعب الضامة والكارطة لم يعد لها من وقت أو خاطر. ثم بدأت المدينة تظهر بوجهها الغريب.

قاسم. يا قاسم، قل لنا ما هذا الذي أصاب المدينة. قل يا قاسم ولا تسكت. المدينة كلها تَنْعَجِنْ، وتخرج من رحى الطاحونة. المناشير ذات الأسنان الحادة تقطع الجدران وتخترق البيوت بمن فيها. قل. لا تتحجب في غرفتك الصغيرة وتترك الأمور لغير العارفين. أنت العَرَّاب. أنت العَرَّاف. قل لنا يا قاسم.

أخذ سكان المدن والضواحي المجاورة يلغون زياراتهم لفاس، حتى وإن كان الهدف تجارة أو زيارة للأهل أو طلباً لوثيقة من السلطات المحلية. يخافون. وقالوا في الهواء أو في الماء، في أشعة الشمس التي تتساقط على المنطقة. وبدأ يتحاشون الكلام مع كل مصاب بهذا الداء خوفاً من العدوى. قالوا فاس ستصير مَبَاءَة. لا بد أن كل سكانها سيصيبهم الوباء، وستغلق أبواب المدينة بمزاليج حديدية ضخمة، ولن يخرج منها أو يدخل إليها أحد. قالوا وجدوا هذا في بعض الكتب القديمة. وقالوا قال هذا سيدي عبد الرحمن المجذوب في رباعية من رباعياته. وقالوا اليهود وقالوا عيون الماء أو الآبار. وقالوا وقالوا.

الأطباء لم يقولوا. والسلطات والمصالح الرسمية لم تدل بأي تصريح. وجمدت حركة النقل. كل سيارات النقل رابضة في أماكنها. وأصوات المُنَادِين على مواعيد الإقلاع والاتجاهات.

سكتت. والشاحنات التي تأتي من الضواحي كي تتزود بالأخشاب والحديد والإسمنت، أو بالدقيق والسكر والصابون، أخذ سواقها يسترخون في المقاهي ولا يشربون شيئاً. يخافون من شرب الماء أو الحليب ومن تناول وجبات المطاعم الشعبية.

المباءة.

فاس المباءة.

متى تُغلق علينا هذه الأبواب وننتظر موتنا على طريقة مدن الجذام؟ المباءة لم تغلق أبوابها علينا بعد، وعلينا أن ننتظر.

ثم جاء ذلك الرجل المُتَأَنِّق، بقُبِّ جلبابه المرفوع فوق رأسه على شكل مثلث حاد، ورائحته العطرية تفوح من منديله الذي يخرجه من حين لآخر ويستنشق منه الهواء، وبُلْغَتِهِ الزيوانية الصفراء، والجوارب الحريرية البيضاء التي ترتفع إلى ساقيه الباديتين من فتحة الجلباب، وهو يسير على رؤوس أصابعه علامة تأنق في المشية، وكأنه اللقلاق. اخترق الدروب والأزقة بمشيته اللقلاقية حتى وصل إلى ضريح سيدي بونافع، وقال له قل. قل لنا هل جاءت ساعتنا ولا تسكت. أنت يا قاسم تعرف كل شيء. قل للطيور والحِيتان والقطط أن تقول لنا. المدينة تنقطع أوصالاً فهل علينا أن ننتظر الموت؟ قل لنا يا قاسم.

في البداية ظهر رجل في الخمسين وهو يشتري الخضر من سوق الرصيف. رأى وجهه البائع ولم يقل. ورآه المارة. وجه مُتَحَلْزِن، أخاديد دائرية وانتفاخات. تَعَجَّنَ الوجه وصار ذا ألوان

قاتمة زرقاء وحمراء تتغير من بقعة لأخرى، والأنف اندمج مع الفم وصارت الشفتان مائلتين إلى جهة واحدة، والذقن امتد وتفلطح حتى صار مندغماً مع الخدين. الطربوش على الرأس، والجلباب. لم يساوم. بدا متعجلاً الذهاب من باب حانوت الخضار بعد أن أخذ ما يريد. كان ينظر إلى الأرض دون أن يتفحصَ الخضر بعينيه. وحين ذهب الرجل بقي سؤال الخضار: ماله؟ محروق الوجه؟ وهذه ليست حروقاً. وحم أو تشوه، ثم ظهرت امرأة تعبر طريق «راس الشراطين». وفي صباح نفس اليوم مر بعض الرجال بنفس الطريق وقد تشوهت وجوههم على ذلك النحو. وبدأت البنات يتغيبن عن حضور الدروس في المدارس، وأغلق بعض الباعة حوانيتهم لأيام قبل أن يمتلكوا الجرأة على مكاشفة الناس بواقع وجوههم التي تغيرت.

أخذ عدد المشوهين يتكاثر. ولم يعد الناس في الجلسات العائلية يتتبعون الأخبار من التلفزيون، أو يسايرون أحداث بعض المسلسلات المصرية أو الأمريكية. البنت أشعلت التلفزيون كي تتابع إحدى حلقات مسلسل مصري، وأمها قالت أطفئيه. هذا مسلسل آخر، ألم تَرَيْ ما نحن فيه؟ كان على التلفزيون أن يصور مسلسلاً عن حالتنا. أنظري إلى وجه أبيك. وتمنى الأب الجالس صامتاً لو كان ما حدث له ولبعض الناس أحداثاً في أحد المسلسلات، لكان قد ضحك أو تعجب، أو سخر ولم يصدق. لكان قد تابع كل حلقات هذا المسلسل.

الأحاديث تتداخل، وكلها تصب في مرض فاس. والذين لم

يصبهم المرض بعد يتناقلون الأخبار حول فلان وفلان وفلانة، كيف تغيرت وجوههم، بماذا شعروا، وهل وقع التحول فجأة أم أن الوجوه بدأت تتغير بالتدريج، في الليل أم في النهار؟

وقالوا الوباء.

الوباء جاء،

وفاس هي المباءة،

فمتى تغلق أبواب المدينة؟

بدأ الذين لم يصابوا يفكرون في الطريقة التي تقيهم من هذا المرض. الهجرة؟ هل عليهم أن يهاجروا إلى المدن الأخرى؟ وماذا سوف يفعلون هناك؟ البقاء هنا وتغلية الماء أو شرب مياه «سيدي علي» المعدنية؟ والاستحمام. قالوا هذا المرض يصيب الناس من الحمامات العمومية فقاطعوها وكثر التردد على حامة «مولاي يعقوب» حتى كثر الازدحام على سيارات النقل والمسابح والأحواض الخصوصية، وتدخل رجال الدرك لتنظيم حركة هذا الازدحام، ولاستعمال الهراوات والعصي، وإعطاء الأسبقية للشيوخ والنساء الحوامل. بخار الماء الكبريتي يتصاعد، والجسد عار. الأجساد العارية تسبح كسرب من الحيتان داخل قارورة، ورؤوس زغب كأنها القوادم تنمو على جناح طائر. تطل رؤوس الريش من تحت الجلد، والوجوه الحلزونية تختفي تحت الماء الحار ذي الرائحة الكبريتية. هذا هو الماء الكبريتي المتفجر من تحت الأرض. ماء تداوى به أجدادنا المجذومون. تداووا أو قعدوا على حافة الحفرة التي ينبجس منها الماء ينتظرون الشفاء.

والحفرة كانت، قبل أن تصير مسابح ومغاطس عصرية وصهاريج خصوصية. وقالوا هذا مكان الداء، ومن الداء يخرج الدواء.

الرجل المتأنق بقب جلبابه وبُلْغَتِهِ وجوربيه مزج رائحة منديله العطري برائحة الكبريت وقال قل لنا أفي هذا الماء الدواء؟ اخرج معنا. تعال كي ترى الماء البخاري ذا الرائحة وقل لنا. تعال يا قاسم، أيها العراف. تعال وقل. لا تتركنا في ساعة الظلام الذي يُعمي العين. المدينة صارت مباءة وأنت لم تقل. أينك أيها الراقد فوق القبور؟ أين هي ألوان طيورك ومخلوقات جسدك الغريبة؟ ها أنت لا تأتي. ارتدى الرجل المتأنق جلبابه وسَوَّى القب على شكل مثلث مرفوع فوق رأسه، ومشى مشية اللقلاق وفتحة الجلباب تظهر منها ساقاه المزغبتان.

الأطباء الخصوصيون نصحوا كثيراً من الناس بإجراء بعض التحليلات، وهم لا يقدمون تفسيراً مقنعاً أو علاجاً شافياً، ويقولون هذه الظاهرة تحتاج إلى دراسة خاصة، وهي غير قاتلة ولا تعوق حركة الإنسان أو ممارسته لواجباته اليومية.

في الهواء أم في الماء؟

في الجلد أم أن الداء بلغ العظم؟

والبعض عادت إليهم الضحكة، واستأنفوا ثرثراتهم ولعب الكارطة والضامة. عادوا إلى التسلي بمشاهدة المسلسلات التلفزيونية بعد أن تعودوا وجوههم على تلك الحالة، ولم تبق للمرآة جاذبيتها الخاصة للوجوه. كان النظر إلى المرآة أهم شغل

طيلة النهار. يقعد الرجل في الدار مهموماً ومن حين لآخر يُخرج المرآة من تحت الوسادة ويطل ينظر إليها كأنه يكتشف وجهه لأول مرة، يتأمل الأخاديد التي انحفرت على الجلد، ورؤوس الريشات التي تطل. كلهم اشتروا المرايا الصغيرة. كانوا يرسلون من يشتريها، وبائع المرايا يضحك ويقول كلكم أصبحتم نِسَاء. المرايا الصغيرة أبيعها للنساء، يحفظنها في الحقائب اليدوية للماكياج، خاصة في أدراج عمارة أو في غرفة النظافة في المقاهي أو المكاتب الإدارية. واليوم صار الجميع يشتري هذه المرايا الصغيرة. كلكم أصبحتم نساء. لكن المرايا لم تعد تشغل الناس، فقد تعودوا وجوههم على تلك الحالة. كبرت اللحى ووجدوا في الشعر ستراً ولو جزئياً لمظاهر الداء. والنساء لا لحى لهن، ولذلك عدن إلى اللثام والجلباب. الملثمات ظهرن من جديد في الشوارع يحيين صورة المرأة قبل الاستقلال، فحرية المرأة بدأت من نبذ اللثام والكشف عن الوجوه الصبوح البيضاء. والوجوه صارت اليوم دموية محتقنة بالزرقة، مُعَرَّقَة تظهر عليها قشور جلدية وأخاديد تتفاوت في عمقها من وجه لآخر. ذوات الشعور الطويلة يسدلن القصة على الجبين إلى ما يحاذي الحاجبين، ويرسلن السوالف على جانبي الوجه لتغطي الأحناك وجانباً من الخدود. وصاحب قصائد الملحون هو الذي خسر، ذلك الذي تَغَزَّلَ وأسرف في وصف العيون والخدود وتشبيهها بالفواكه والألوان. خسر خياله وقصائده التي لم تعد تجد وجوهاً للصبايا تشبه وجوه القصائد. وشاعر الملحون اختفى، لعله خجل حالما أحس أنه قد

أسرف في الخيال، أو أن تَغزُّلَهُ أصبح يعني نساء وصبايا زمان مضى. أين راح؟ أين اختفي ذلك الشاعر الذي ما زال المذياع يردد أغانيه؟ نساء القصائد اختفين مع الشاعر. خدود التفاح وشفاه شقائق النعمان. راحت نساء وصبايا القصائد، وظهرت في الشوارع نساء أخريات من زمن محترق وجوه صباياه كأنها محروقة بلهب البوطاغاز، كأنها الحلزون.

المباءة.

ابتعدوا عن هذه المباءة.

المدينة التي أكلها الوباء وأكل معها قصائد شاعر الملحون.

لكنهم بدأوا ينسون. والذين لم يصبهم الداء هم الأكثر عذاباً. يخافون على وجوههم ويحترقون بنار التوقع. غدا يتغير وجهي. ربما بعد أيام يصيبني مرض فاس. أين أُخفي وجهي عن المرض؟ من قال إنه سيسلم؟ من لا يتوجس منكم أن يتشوه وجهه وهو نائم في الليل أو وهو سائر في طريقه إلى الشغل؟ والعيون أصبحت مرايا للعيون. في عينيك أرى وجهي هل تحول أم أنه ما يزال.

الجرائد لا تقول.

والإذاعة تبث أخبارها العادية.

والتلفزيون يظهر كل مساء مناظر سياحية من بعض المدن. في هذه الليلة ظهرت فاس. مناظر للأبواب والأسوار الأثرية، وباحة جامع القرويين، ثم سطوح المنازل المتشابكة كخلايا النحل،

وأطلال المرينيين، ولقطات تبين بعض المارة في دروب واطئة. والموسيقى الأندلسية تشنف الأسماع. بينما تكتفي الكتابة الإلكترونية بالتعليق: «مناظر من مدينة فاس». ولم يقل المذيع أي شيء.

يسألون الرياح عن وجهتها، وإذا قالت من فاس يزكمون أنوفهم ويخافون أن تحمل معها الداء. كثرت الأوصاف والأخبار والشائعات، وتحركت النعرات. ورفضت فرق كرة القدم إجراء بعض المباريات على أرضية ملاعب فاس، أو أن تتقبل مع الفرق الفاسية. ثم فاجأتنا إحدى الإذاعات الأجنبية بإذاعة الخبر: «داء غريب ينتشر بين بعض سكان مدينة فاس المغربية، يغير الوجوه وينتشر على بشرة الأطراف، ولم يتم حتى الآن أي كشف علمي عن الأسباب التي تجعل الوجوه تتحول تحولاً غريباً، مما أتاح الفرصة للشائعات، خاصة في الأوساط الشعبية، كما أنه لم يصدر أي بيان رسمي في الموضوع». تناقل الناس أخبار تلك الإذاعة، ونشطت الصحف الوطنية في نقله والحرص على نسبته إلى الإذاعة الأجنبية. وجاءت التعليقات بين متعجب ومحلل للداء على أنه مظهر من مظاهر الأزمة في البلاد، ومطالب لوزارة الصحة بأن تتحمل مسؤوليتها في إذاعة بيان رسمي يطمئن المواطنين، وأن تخرج عن الصمت بإرسال فرق من الباحثين والإخصائيين إلى المنطقة لدراسة هذه الظاهرة، وإصدار تقرير علمي في الموضوع. ومن الجرائد ما ذهب إلى تكذيب خبر الاذاعة الأجنبية، واعتبار نشرها لهذا الخبر مساساً بكرامة المغاربة ونيلاً

من إرادتهم وعزمهم، كما أن نشر خبر مغرض كهذا يعد تعبيراً عن المواقف المعادية لـ «تجربتنا الديمقراطية» و «وحدتنا الترابية».
ولم يغامر أحد من سكان المدن ليأتي بنفسه إلى فاس ليرى بعينيه ويتحقق من وجود داء اسمه الداء الفاسي، على غرار «الزين الفاسي». أما سكان فاس فوحدهم ظلوا يعلمون.

ثم جاؤا.

دخلوا جماعات.

صعدوا الأدراج الثلاثة البرانية، ودخلوا الباب الكبير. تجمعوا في الباحة يكشفون عن وجوههم وأياديهم وأرجلهم. هذه وجوهنا، والجلد تفسخ، والقلب تقطع وأدماه الألم. أعطنا من بلسمك يداً تلمس وجوهنا وأيدينا وتعطينا الشفاء. أنت صاحب الداء والدواء. داونا يا سيدنا. الوجوه. انظر. وأنت عليم بكل شيء. أنظر وأنت ترى ما تحت أثوابنا. قل لنا يا سيد الأولياء وأخرجنا من ساعة الضيم والمرض. داؤك أصابنا. نحن شرفاء فاس جئنا إليك بالدم. هذا عارنا. أرجع وجوهنا إلى وجوهنا، وبشرتنا كما كانت. العزباء لا تتزوج. والطفل الصغير الذي لم يذنب أكلت وجهه الخطوط الدائرية، وطبقة من وَبَرٍ أو لِحَاءٍ أو قشور مَحَارِيَّةٍ لامعة. انظر وسترى. هل رأيتنا يا سيدنا؟ أرأيت؟ نبتات كأنها منابت الريش بدأت تظهر على الوجوه. هل ستصير وجوهنا مُرَيَّشَةً كالطيور؟ أنقذنا. الله وضع يده على وجه آدم بعد أن سواه من تراب. أنقذ وجوهنا. قل لنا أفي الماء أم في الهواء. ارفع عنا داءك، وأعطنا الأمان نعطِك الدم. هذا عارنا.

كشفوا غطاء أسود ظهر من تحته ثور أسود أحمرت عيناه، وأخرج أحد أصحاب الجلابيب سكيناً وأسقط بعض الرجال الثور على الأرض. كانوا قد طوقوا الثور وكتفوا رجليه. ورفع صاحب السكين سكينة في الهواء وصاح. كشفوا رؤوسهم ورموا بالطرابيش والعمائم على الأرض الزليجية ذات القبور المستطيلة. نظروا إلى أعلى القبة. كانت هناك بعض الحمائم، وحين سمعت الصيحة تفرقت في سماء الضريح. تدفق الدم، واعترضوه بطست وأخذوا يرشون به الأسوار ويدلقونه على الأرض. النساء يزغردن، والرجال يصيحون صيحات بدائية تحتفل بالدم.

هذا دمنا.
خذ الدم وأعطنا وجوهنا التي فقدناها،
هاك الأراضي التي على السد.
هاك الدور والعقارات.
هاك الشيب
ودموع الصبيان
وارتعاب العذارى من وجوههن
وأعطنا وجوهنا.
لم نأتك بالبكم والصم والعميان،
ولم نأتك بالعذارى كي ترى وجوههن.
ها هم أجدادنا الشرفاء دفناء رحابك،
يسألونك أن تقول لنا أفي الماء أم في الهواء.

الدم وحده لا يكفي .

نعطيك رسوم الأراضي ،

وأعطنا ولادة وجوه نضيرة بيضاء صافية الأديم ، أو أعطنا وجوهنا التي كانت .

الحمامات عادت إلى أعلى القبة ، وهدأت . قالوا ها هو يرى ويسمع ، وعلينا أن ننتظر . تنبه أحدهم إلى الرأس التي كانت تطل من الممر ثم تختفي . كان قاسم قد رأى وسمع ، وتراجع إلى الممر الفاصل بين غرفتي المجانين . توقف بين الغرفتين وهو ينظر إلى الرجال والنساء نظرته الآمرة ، ويشير لهم إشارة الصمت حتى يهدا ضجيج الساحة . كان يطل برأسه من حين لآخر ، من رأس السطوان المظلم ، ويرى الجدران الزليجية التي تلطخت بالدم . قبل ذلك كان قد رأى السكين وهي تذبح الثور ، والدم المهراق ، والطست ، وأستيقظت فيه كل الرغائب ، ولكنه خاف أن يظهر فيفسد كل شيء . حين رأى الطست المليئة بالدم ، كان يثبت قدميه على الأرض ويتمسك بالجدار كي لا ينفلت منه جسده ويقترب من الدم ، ثم أخذ يضحك ويقفز بخطوات عجلى ليهديء صليل السلاسل الذي بدأ يرتفع .

تضرعوا .

بكوا .

قالوا نحن شرفاء فاس نعطي الغالي والنفيس ولا نطيق أن نرى وجوهنا هكذا . كل الجلد . كل البشرة . الوجوه تخشبت ، صارت

كقشرة الفلين، ولربما سوف تنمو عليها بعض الريشات فتصبح لنا وجوه الطير. والقشرة الخزية تكشف عن لمعان المحار أو الحلزون. كل الدموع انهمرت. كل الصبايا أكل قلوبهن الوجع، منهن من أصابها الداء ومنهن من تنتظر. كل الرجال تعودوا أن يروا وجوههم، وبعض الريشات التي أخذت تظهر من تحت الجلد. والأفواه والأنوف والجباه انبعجسب وتكونت داخل الخطوط الدائرية حتى صارت الوجوه حلزونية كما تراها يا سيد السادات. إذا لم ترها فستراها. ها حمائمك فوق القبة ترى كل شيء وتقول لك. ها أرواح الشرفاء جاءت على صورة الحمائم.

أصاب السي الهاشمي هوس وذعر. كان قد انْدَسّ بين الرجال والنساء والأطفال، دون أن يأبهوا لوجوده أو يسألوا عنه. تراجع إلى غرفته وقال للمرأة ونظر إلى الأرض. كل شرفاء المدينة جاؤا ومعهم أرتال من النساء والصبيان. ذبحوا الثور ورشوا بدمائه الحيطان. هذا شعب يريد أن يصير شعب الضريح. أين سنضعهم؟ قولي. إذا أرادوا البقاء هنا فأين سنضعهم؟ في الساحة؟ يأكلون ويشربون فوق القبور؟ هل نخرج المجانين ونستقبلهم في الغرفتين؟ ظلت المرأة ساكتة وهي تبتسم. قال لها قولوا ولم تقل. وأنا أين سأذهب؟ كيف سيخرج الأولاد إلى المدرسة وسط هذا الازدحام؟ هل سيذهبون أم سيبقون هنا؟ إنهم يتذرعون ويبكون. نظرت المرأة إلى عيني السي الهاشمي وقالت له:

ـ أريد أن أخرج لأراهم.

صاح.

- لا. إبقي هنا وأنا أخبرك بكل شيء.

- أريد أن أرى الثور المذبوح.

- سيصلك النصيب من اللحم والكبد.

- وزغاريدي، ألا أطلقها؟

- هل نحتاج الآن إلى الزغاريد؟ أنا في ورطة. ماذا أقول لهم؟

- أعطهم الولاية.

- أعطيهم ولكن أين هم الشرفاء، لماذا لم يكلموني؟

- هؤلاء هم الشرفاء. أليسوا شرفاء هؤلاء؟

نظر إلى الأرض وسكت. كان يريد أن يخرج إلى الساحة ليرى ما يحدث. قالت له المرأة:

- جاءتك المناسبة. هذا نهارك يا السي الهاشمي. أعرف كيف تلعب. ظل ساكتاً.

- أعطهم الولاية، وخذ الأراضي الواسعة التي على ضفاف سبو.

- أية أراض؟

- أراضيهم. نحن نهاجر إلى الأراضي، نمتلكها، وهم يبقون هنا.

- وهل يعطوننا الأراضي بسهولة؟

- تعطيهم الولاية ويعطونك الأرض. ألست المقدم؟

ـ يعطونها للولي .

ـ وأنت تأخذها .

ـ وماذا أفعل بالأرض؟

ـ السد. الماء والشجر. الزرع والزيتون . أراضيهم غطت كل الأرض .

ـ يريدون الشفاء .

ـ الولي يشفيهم .

ـ متى؟

ـ عليهم أن ينتظروا . هذا شأن الولي . إذا أراد يشفيهم وإذا لم يرد فما شأننا نحن؟

ـ كيف يشفيهم؟

ـ أحرق البخور وقل لهم قال لكم أعطوه الأراضي ، وستشفون في الشتاء ، مع سقوط أولى قطرات المطر. قل لهم قال لكم . قل .

ـ دعيني الآن . سأخرج لأراهم .

كانوا قد انسحبوا جميعاً . الثور يسبح في دمه والساحة فارغة . قاسم ينظر إلى القطط التي تجمعت وهي تلحس الدم وتحاول أن تتسلق الجدران فتنزلق مخالبها وتتهاوى . تلطخت القطط، وأخذت تلطع جنوبها المدماة وتقترب من الذبيحة ، تتشمم وتلحس الدم الذي على الأرض .

رآى قاسم ألواح الرخام البيضاء .

الشواهد صارت حمراء،
تلوثت بالدم.
قال هذا دم الموتى ينهض.
بياض الموت يتهلل،
ويصير احمراراً دموياً.
دم الشرفاء.
دم الريح والتصهال والحنين.
دم الليالي التي تأرقت فيها المدينة.
دمكم أيها الأغبياء الناعسون خارج الدورة.
دم صار لا شيء.
صار لعباً في احتفال بدائي.
أعيدوا للدم دورته ونهوضه كي يقول.
أعيدوا للدم دمه حتى يتدفق في الشرايين،
أيها الأغبياء ما أقسى الضحكة في زمنكم.

ضحك قاسم وفتح ذراعيه. نشر ألوانه في فضاء الساحة، وخرج من الضريح وهو يجري. قطع الطريق نحو باب الفتوح، ثم خرج منه إلى القبب. الموتى؟ آه. رآى القبور حمراء. هذا يدير ظهره للآخر. وهذا مريض يئن طوال الليل. السعال. هذا مجنون يشتم الآباء والأجداد طوال الليل والنهار. عرفته. أنا أسمع شتائمه ولا أرد عليها. أعرف أنه لا يشتمني أنا. والآخر قانط، يريد أن يعود إلى سوق الرصيف ليشتري سمكة الشابل الأنثى بما يختزنه بطنها من جنات. وذاك المؤرق. ها هو يبكي

ويقول لنفسه حكايته التي حملها معه إلى القبر، ولم يقلها لأحد. الدفينة هناك، ذات الصوت الجني التي لا تقول إلاّ في الليالي القمراء، وهي تصف صوتها النافذ إلى آذان المدينة بالصوت. آه تلك الشابة التي ماتت بعد ليلة عرسها بيومين. هي قالت كل شيء عن عريسها. قالت اسمه ولم تقل اسمها. هل كانت تقول كل ذلك للناس أم لنفسها؟ في أي زمن عاشت؟ لعلها عاصرت بوحمارة؟ أو عاصرت عام البون وأيام التيفويد؟ يمكن.

كان قاسم قد اجتاز طريق السيارات من تحت النفق الذي يعبره الراجلون. حتى الموتى يدخلون هذا النفق محمولين على الأكتاف. خرج إلى باب المقبرة، ورأى القبب متناثرة وسط القبور. عيناه رائيتان، تحملان معهما دم الثور الذي صار دماً للجدران، ودماً لِلْمِزْوَلَة، وللقطط والقبور الزليجية والشواهد الرخامية التي لم يخطها قاسم بعد. دم الرخام ذاك. دم الحروف. الحروف تَدَمَّتْ وصارت القبور مدماة. حتى قبور القبب صارت دامية، وفي فراغ القبب، على أبوابها غير الموجودة، دم. دخل قبة ورأى سقفها ينز دماً. القطرات تتهاوى وتطلي ألوان جناحيه وصدره بالدم. أنا الدم قال قاسم. أنا الدم النافر في العروق. أنا الوجع. أنا النهوض الذي لم ينهض. في مغيبي أنا الشرفاء، البهلوانات التي تَتَقَنَّعُ بقناع سَمَّوْهُ مرض فاس. قناع فوق القناع. القناع هو الذي تقنع بقناع آخر حينما لم يحقق شهوته في امتصاص عرق «الحياينة» و «أولاد جامع» وقبائل «شراكة». وأرض القناع المسقية بالعرق، في جفافها تشبه أقدام الفلاحين الحافية،

المشققة، التي صارت أصلب من الحجارة. وكل شيء صار له قناع. حتى الدم تقنع بدم الثور الخائر في دمه في باحة الضريح. تعالوا اسمعوهم. ها هم. يبكون دموع التماسيح. يرون في الحمائم أرواحاً للأجداد. افتحوا الوسائد فستجدون فيها أوراق الألف ريال القديمة، وقد تعطنت والتصقت الورقة بالورقة. ثم حينما عرفت أقدامهم أبواب البنوك. صاروا يحفظون الشيكات في الشكارات الكبيرة التي يضعونها على الجنب، قرب القلب، تحت الجلابيب. اسمعوهم يقولون. لا تضحكوا إن رأيتم الوجوه. ولماذا لا تضحكون؟ أليست هذه وجوه الشرفاء؟ لعلها هكذا تكون. وجوه الشرفاء من القديم وهي هكذا. أضحكوا كما تشاءون.

وهذا قبر، قد يكون قبرك أيها الفتوح بن دوناس، وهو يرى يدك التي لم يجف منها دم أخيك عجيسة. كنت أحمق وظننت أنك ستعيش أبداً أيها الفتوح. وها هو بابك مُنْفَتِحٌ على عالم الموتى ومقبرة القبب، مُنْغَلِقٌ على الشرفاء الذين ينتظرون ساعةً تَكَتَّمَ عليها الجميع على الجميع. ساعة أصفرار وسقوط، انحدار نحو المغيب، شقشقة كلام فارغ ونقيق ضفادع. الرجال يَنِقُّونَ كالضفادع. وهذا الميت كان ضفدعاً، سمينا كثير الشحم حتى ضاق قلبه وسط صدره من كثرة الشحم، ولذلك يَنِقُّ كل ليلة ويطلب نسمة من هواء البساتين المحاذية لنهر سبو، والقبب لا ترد الصدى. تعرف لماذا؟ جعلوها مفتوحة بدون أبواب كي لا ترد أي صدى. والقبب صداها في الكلام، فيما تسمعه من كلام الموتى ولا ترد.

أنا قاسم رأيت دمي. ألوان النسر والثعبان صارت دماً. النسر هو الذي سرق داري وأخذها إلى الجبل، ومن عينيه خرجت السجائر، كان ينفخ دخانها من فمه ويكوي جسد ابني. جئت بالثعبان وأرسلته على النسر. ناراً لثعبان حارقة ينفخها من فمه. حمراء أو زرقاء من جهنمه التي يكونها حواليه. والنسر الذي شحذ منقاره على حجارة الجبل لا يستطيع أن يقترب. يخنقه الدخان ويسعل سعالاً حاداً ويخشى أن ينظر إلى رماد جناحيه، ولا مكان للفرار من الثعبان.

وعندما يتعب الثعبان من نفخ ناره من فمه، وتذروها الرياح، يحلق النسر ويحاول أن يقترب. يميل على جناح واحد، والثعبان يتضخم حتى يصير طوله عدة أمتار، وعرضه يسد طريق الوادي. والنسر يميل حذراً وهو يتوقع النار التي تحرق عينيه وجناحيه. وحين تظهر آلاف القطط في أرض وسماء الوادي يتراجع النسر نحو قمة الجبل ويحط عليها وهو يفكر في حرب لم يرها من قبل. يفكر في الكهوف التي سجن فيها آلاف الطيور والعصافير الملونة، ويقول هذه باب أحد تلك الكهوف، باب مرأب لإصلاح السيارات والأشغال جارية كالعادة، وحين تدخل إحدى السيارات مشحونة بالعصافير الملونة وتتجاوز الأولاد الذين تسودت أياديهم وبذلاتهم الزرقاء، وتخترق الباحة الداخلية، تدخل معبراً مظلماً ويبدأ ظلام الكهف وقبوه السفلي حيث السوط والكهرباء والمعلاق وقلع الأظافر وغطس الوجوه في حوض جافيل حتى الاختناق. النسر رأى أحد تلك الكهوف وضحك،

وها هو يطل على باب كل كهف من كهوفه السرية كي يرى من هناك، فيسمع أغاني الشيخات ويشم رائحة الخمر، ثم يشم رائحة المداد الذي في الكتب، ويسمع الصمت. وحين يسمع الأصوات الرجالية تردد مع الشيخات أغانيهن يقول هؤلاء هم الحراس، إنهم هناك، يشحذ منقاره ويغادر الكهوف التي جعل منها معتقلات ليرى ما سيفعل بالثعبان أو ما سيفعل به الثعبان. يهوي فجأة ليجرح الظهر ويسيل الدم. خاف أن يهوي بمنقاره على العينين. نار عيني الثعبان رهيبة، حارقة والجناحان من ريش.

وحين أنقلب الثعبان على بطنه وشعاب الوادي تجري فيها دماؤه صَيَّرَ الأرض والسماء جحيماً وجاءت النار الزرقاء والصفراء والحمراء، والتهب جناح النسر، وبكى. دموع النسر هذه. تعالوا لتروها. ها النسر المحترق الجناح يبكي. ثعباني أحرق بناره جناح النسر الذي أحرق جسد ابني بسجائره. من أحد تلك الكهوف خرج ابني محروق الجسد بالسجائر. وأنا أرسلت الثعبان على النسر. هذه حرب. والنسر يحمل جسده المحروق على جناح واحد ويصعد نحو الجبل، وإذا عاد فلن يخرج من هذا الجحيم إلا رماداً، لتنتهي هذه الحرب.

ثم رأيت هذه الحرب على جسدي، وأنا واقف داخل هذه القبة المنخوبة العارية وسط فضاء المقابر. رأيت النسر والثعبان يتحاربان فوق صدري وذراعي، ورأيت النار الجحيمية التي ينفخها ثعباني من طرف لسانه، وقمة جبل النسر التي جعل من

كهوفها معتقلات للطيور، ورأيت قطرات الدم التي تتهاوى من السقف وهي تغطي كل هذا العالم باللون الدموي.

من أحد القبور ظهرت اليد. يد سمراء ظاهرها كثير العروق، والأصابع ذات العظام البارزة. رأيت دمها. يداً ملطخة بالدم. ماذا ستقولون إذا قلت لكم ها هو قبر الفتوح بن دوناس، أنا اكتشفته. وتعالوا نخرجه ونسأله عن حروب باب الفتوح، وعن الخيل والبارود واحتفالات النصر، وما جرى بينه وبين أخيه عجيسة؟ نسأله أو نسأل الباب؟ باب الوجه والقفا؟ نسأل اليد؟ ومن أَدْرَانَا أنها يد الفتوح؟ قد تكون هذه اليد واحدة من تلك الأيدي، ويمكن أن تخمنوا أصحابها. ها هي ما تزال خارجة من القبر، بارزة الأصابع العَظْمية، والعروق نافرة زرقاء، والدم يلطخها ما يزال. يد من تكون هذه؟ قولي أيتها اليد. يد من تكونين؟ أنا عرفت، ولعلكم قد عرفتم مثلي فلا حاجة لأن نسأل أحداً. نسأل الشرفاء؟ آه، الأقنعة التي صارت تغطي الوجوه بتجاعيد حلزونية. وما الأقنعة سوى الأقنعة، إنها كل شيء. كل واحد يصنع قناعه كما يريد، وهؤلاء الشرفاء أصابتهم لعنة القناع الواحد، قناع الوجه المتورم، والخطوط الدائرية الغائرة، واحتقان الدم في مكان إلى جانب الصفرة في مكان آخر. وجوه الصبايا قالوا. وأنا لم أر وجهها منذ زمن. إسمها نسيته. اقتربت من الدار ونسيت الاسم فتراجعت. والدم هو الذي قال. القطط جائعة، ولذلك لحست الدم من فوق القبور.

الصبايا قالوا. أينك يا شاعر الملحون؟ لعلك راقد وسط واحد

من هذه القبور.

القبب منفاي. الرخام ضريحي. أنهاري تتدفق وماؤها يسيل. أنهار حروف. البارحة تركت الحرف، واليوم عدت إليه ضاحكاً أفتح له ذراعي وأقول ها ساعة الإنتشاء بالفرح الجريح ولذة ألم يعتصر بياض هذا الرخام.

ظهر لي السين،
وكتبت الباء،
والراء،
والحاء،
والتاء،

ونهوض الأَلِف هو الذي نبهني من الغفوة. كنت قد مِلْتُ مع الحروف حيث تميل صاعدةً هابطةً وقلت هذا هو مجرى النهر فوق صحراء كل نبؤاتها كاذبة، وحين أنتقل المجرى النهري إلى الغابة لَفَّهُ اللِّحَاءُ والعشب الطري الأخضر، ورأى وعلٌ نافرٌ حروفَ النهر وهي تتوزع فاختفت البراءة في عينيه وتَنَمَّرَ الوعل.

واللام،
والنون،
والعين والغين والحاء والخاء.

شَكَّلْتُ نظامَ الترادف أبحثُ عن المعنى. ثم قلت هذا هو المعنى في الحروف التي سوف تغدو أصواتاً ذات يوم على

ألسنة الطير والشجر وهَوجِ الرياح. معناها هو معناي، وسقوطها هو انحداري نحو مغيب لن يكون تتويجاً لهذه الأزمنة القاسية. مغيب دورة هذا الذي ينحدر نحو السقوط. قالها السين وهو يتقوس، وقالتها الباء والتاء والثاء وهي تبكي بدموع نقطها المتناثرة كنجوم ليلة الصحو السماوي. لم يقلها الألف الذي ينهض، ويمتد ليخترق سماء الوهم والأقاويل. أقاويل حروف أخرى مضمخة ببخور عود القماري ورش عصارة الورد والزهر. حروف رغم تضميخها بالرائحة تظل أقاويلها بادية للعقل. وحروف القصيدة؟ وحروف الخيال؟ وحروف التقارير والمحاضر السرية؟ وحروف التاريخ المزيف؟ وحروف الأسماء؟ وحروف الأشياء؟ وحروف الصمت؟

كلها حروف تتوالى وتنهض في وجهها الحروف الضد.

ينقلب الحرف على الحرف،

يمحوه بالكتابة كي يحتل خريطته وغابته ونهره، وأيامه التي كانت.

والحرف الذي على جدران السجن؟
والحرف الذي على صفحة الجريدة؟
والحرف الذي صال وجال في نُسَخِ المعاهدات؟
والأحرف الأولى؟

كلها حروف وها أنا أرغب في أن أمتلك حروفي. أَلاَ ترى

معي هذا الإزميل وأنت تشحذ حَدَّكَ بالقوة والصمود وبدْءِ البدء؟ وها ساعداي . زمنٌ كَلّ، والجسد ينحني ويستجيء بقوته من قهره وظلام ما رآه، يخرج من جسده ويسافر في الحروف، بها، معها، في رحلة تيه تتألق فيها الكلمات كي تنسي الجسد تعب الرحلة، وحين تتألق تتأجج وتشتعل، ويصيبها لهب الإزميل، ماؤه الناري، لتخضب سلسلة أخرى من الحروف، والحرف يعانق الحرف، والحرف يتأبط الحرف، والحرف يقول للحرف ويقبله ويشكوه الوحشة والحرفَ يباكيه أو يضاحكه أو يخاصمه أو يمد إليه طرف لسانه ساخراً، أو يحتويه ويحضنه ليقول ولا أحد يسمع ما يدور بينهما.

صدقت حروفي السامقة،

وكذبت الأخرى التي تنهار وتنحدر نحو المغيب.

وها قد رأيت الحروف تتعلق من أطرافها في سقف القبة المقوس، حتى صارت كالقردة التي تتدلى من ذيولها على أغصان شجر البلوط. رأيتها وخرجت من القبة كي أرى كل القبب تلفظ حروفها وعدت إلى المتاهة.

كانوا قد ذهبوا ثم جاؤا.

وبكوا. نظروا بأعينهم جميعاً إلى باب قبة الضريح وصمتوا حتى كأنهم جمدوا في وقفتهم. الجلابيب والطرابيش الحمراء. وقفوا صفوفاً، يتقدمهم الشريف بن الشريف بن الشريف، خاشعاً

بكلماته التي لا تنطق. يتكلم بعينيه، وبالنظر الشزر نحو أتباعه، يستدير نحوهم ويحثهم على النظر الخاشع ودعاء السر والاستخارة. رآهم قاسم وقال ها هي القبيلة جاءت، وبعد حين سيأتي الصم والبكم والعميان والبرص والعرج والقرع وكل ذوي العاهات. وقف السي الهاشمي وإلى جانبه قاسم عند باب الممر المحاذي للقبة. وقفوا في الباحة صفوفاً طويلة تمتد إلى الباب الكبير والأدراج وإلى خارج الضريح، بينهم الصمت، وعيون القطط، وألواح قاسم الرخامية، والعين التي تصير قطرة ماء، والمزولة التي على الحائط المقابل لطلوع الشمس وتوسطها للسماء. بينهم زمن يمتد. وظلوا واقفين هكذا.

ـ نحن الشرفاء جئنا.

قال الرجل الذي يتقدم الجماعة. ارتبك السي الهاشمي ولم يعرف من أين يبدأ الكلام. نظر إلى قاسم. وقاسم انتفض في الهواء ونشر ألوانه على كل الساحة. صرخ صرخته التي نَفَّرَتْ سرب الحمائم من فوق القبة. ظهر صدره العاري وعليه صور القطط والنسر والثعبان وعينا امرأة، والحروف. ظهرت على صدره غابة أشجار قصيرة، وجبل ذو صخور مسنونة، وسحابة داكنة وسط سماء زرقاء، والحروف تتعلق من ذيولها بأغصان الشجر، وعينا قط أسود، والعين السحرية والعقرب واليد التي يسمونها «خميسة وخميس» وظهرت على ظهره السياط المبللة في طست من البلاستيك الممتليء بالماء، والأطفال، والدروب، وأبراج المدينة، والسطوح المتشابكة، والمقابر، وأشياء أخرى لا

تنتهي، كلها كانت تظهر على جسده، وحين أنتفض تبعثرت كل هذه الصور، صارت مجسمة وملأت المكان. طار النسر وتسلل الثعبان إلى أعلى القبة. والمرأة ضحكت وهي تنظر إلى شيئها العاري ثم اختفت وسط الزحام، والحروف عادت إلى ألواح الرخام، والعين التي تصير قطرة ماء هوت إلى الأرض، وعاد كل شيء إلى مكانه.

ظلوا واقفين ينظرون والأعناق تشرئب نحو مكان وقوف قاسم والسي الهاشمي. ارتفع اللغط في الغرفتين وتحركت السلاسل بصليلها المسموع من الباحة. صرخ قاسم. وتراجع نحو الممر المظلم ليدخل غرفته ويغلق عليه الباب. كان السي الهاشمي يرى من مكان وقوفه وهو ساكت، لا يجد ما يقول. وقال الشريف الذي يتقدم الشرفاء:

- جئنا بالثور وذبحناه.

رد عليه السي الهاشمي بصوت مرتفع حتى يسمع الجميع:

- نعم. أكل منْ لحمه الفقراء ونزلاء الضريح، وحتى القطط.

- ونريد أن نعرف ما قاله الولي.

- الولي؟ لم يقل شيئاً بعد. أحرقنا البخور في القبة ثلاث ليال، وهو لم يقل.

- وذاك الثعبان.

- أي ثعبان؟

ـ الذي يطل من فوق القبة .

ضحك السي الهاشمي وقال :

ـ هذه أشياء قاسم .

ـ قاسم؟ هل هو ساحر؟

ـ مسكين . من أين له بالسحر؟

ـ وما هذه الغرائب التي يقوم بها؟

ـ أشياء مضحكة . يريد أن يضحكنا بهذه الأشياء .

ـ وهل نحن في وقت الضحك؟

ـ ستصير كل هذه الأشياء مألوفة . الثعبان والنسر والقطط وعيون النساء ، والعقرب ، والسحابة والقبور ، كلها ستصير أشياء مألوفة إن بقيتم معنا هنا .

ـ نبقى معكم ؟

ـ إذا أردتم الشفاء . إذا أردتم أن يقول لكم الولي .

ـ من أين جاء قاسم إلى هنا؟

ـ من أرض الله الواسعة .

ـ من أي مكان؟

ـ ربما من البادية . من الحياينة أو شراكة .

ـ هؤلاء خماسون . يخدمون أراضينا بالخمس ، وما شاهدنا من بينهم من يفعل هذه العجائب .

ـ عجائب؟ الرجل مجنون .

ـ قل له أن يخرج لنراه .

- لا يريد. هو يخرج متى شاء ويدخل غرفته متى يشاء.

- أية غرفة؟

- يسكن مع القبور في إحدى الغرف الصغيرة.

- أنا أدخل إليه.

- لا. ستخاف. في غرفته أشياء كثيرة مخيفة.

استدار الرجل ونظر إلى الواقفين من خلفه صفوفاً. تبادلوا النظر. الثعبان يطل من أعلى القبة، والنسر يحلق فوق باحة الضريح. رفعوا أعينهم ورأوه. الثعبان يَتَلَوَّى ويرفع رأسه نحو مكان تحليق النسر. والنسر يقترب من أعلى القبة ثم يميل على جناحه الواحد ويتراجع. كان النسر ذا جناح واحد، والآخر لا ريش له، يبدو وكأنه محترق. ولسان الثعبان ينفخ ناره الحمراء. يتناظران. عين النسر في عين الثعبان، والنسر يبتعد ويغيب فوق سماء المقابر. طار ناحية القبب ثم عاد من الناحية الأخرى، من فوق سطوح المنازل. والذين كانوا يقفون خارج الضريح رأوا النسر وهو يهبط ويخرج من باب الفتوح نحو المقابر. لم يطر فوق الباب. خرج منه وهو يندفع بجناحه الواحد. ولم يروه وهو يعود من سماء الصوامع وأشجار النخيل الباسقات وسط رياض المنازل. والشريف بن الشريف الذي يتقدم الشرفاء رأى العين. رآها تنظر إليه. هذه العين كانت مرسومة على صدر قاسم ثم نفض جسده فخرجت منه كما خرجت المرأة العارية، والنسر والثعبان، والحروف التي ظلت معلقة في الفراغ قبل أن تَنْكَتِبْ على رخام الشواهد. رآها تراه. أنحنى ورآها عن قرب. بؤبؤ أسود لاَمِعَ

يحيط به البياض. أمسكها بأنامله ووضعها في كفه. صارت قطرة ماء تهاوت من بين أصابعه، ثم رأى قطرة الماء تتهاوى إلى الأرض وتصير عيناً كما كانت.

حين هوى النسر مائلاً على جناحه الواحد، كان الثعبان ينفخ ناره الجحيمية، والنسر يُبرز منقاره المعكوف إلى الأمام. لكن النار أحرقت جناح النسر، فتهاوى فوق قبة الضريح، وأحترق ريشه وهو يصرخ، والنار الحمراء الزرقاء الصفراء تتأجج، ورائحة الريش المحترق تملأ المكان. تزحلق النسر ساقطاً على الأرض، وجاءت القطط، ثم عاد الثعبان وَشْماً على صدر قاسم.

والشريف نظر نحو السي الهاشمي وقال نسيت. قال له السي الهاشمي:

ـ ماذا نسيت؟

ـ نسيت أن أقول لك لماذا جئنا.

ـ ولماذا جئتم؟

ـ نسيت. لا أعرف لماذا نحن هنا.

استدار نحو الصف الواقف خلفه في صمت، ورأى الوجوه.

ـ آه. المرض الفاسي.

ـ المرض الفاسي؟

ـ ماذا قال الولي؟

ـ لم يقل.

ـ هل شربناه في الماء؟

ـ فاس كلها عيون وآبار.

ـ وجوه بناتنا وأبنائنا. وجوهنا.

ـ الولي يريد الأرض.

ـ هل قال ذلك؟

ـ لعله يريد الأرض. أعطوه الأرض يعطيكم الولاية.

ـ الولاية؟ نريد الشفاء.

ـ لا بد أن تبقوا هنا بجواره. هاتوا بناتكم وأولادكم وتعالوا لتسكنوا بجوار الولي.

ـ ولماذا؟

ـ إذا أردتم الشفاء.

ـ والأرض؟

ـ ماذا ستفعلون بالأرض؟

ـ وهل يتسع لنا الضريح؟

ـ ستسكنون هنا، في هذه الساحة، وها هي القبة أمامكم.

ـ نريد البرهان.

ـ سيظهر البرهان حينما تعطون الأرض، وتسكنون هنا.

ـ لِكَمْ من الوقت؟

ـ لا أعرف.

ـ كم تقدر؟

ـ ربما لشهور أو لسنوات.

ارتفع عويل الرجال والنساء الواقفين صفوفاً. ثم رأوا ناراً حمراء تشتعل فوق القبة، وينتشر لهيبها فوق كل شيء. النار

والدخان. الحرائق الجحيمية تندلع وتغطي كل شيء، الضريح والشرفاء والقبور. وحين صار النهار حرائقياً أخفي في الجحيم كل شيء. ومن وسط ذلك الجحيم خرج قاسم.

السماء عادت زرقاء، والقبور الزليجية ها هي، وكذلك ألواح الرخام البيضاء. بعض القطط تتوزع في باحة الضريح، وكل شيء عاد كما كان، وقاسم يقف في الوسط ويُكَلِّم نفسه وهو ينظر إلى صدره العاري. راح الشرفاء. اختفوا وسط النار والدخان. كانوا قد انسحبوا من مكان وقوفهم وعادوا إلى وجوههم المصابة بالداء. ربما سيعودون إلى هنا مرات أخرى، والسي الهاشمي يريدهم أن يعودوا ومعهم الأوراق العدلية، كي يعترفوا به مقدماً للضريح ويعطوه الأرض والرسوم. يريدهم أن يأتوا ويخشى أن يتأخروا في هذه المرة، ولعله الآن مع زوجته يحوك بعض المؤامرات. أخرج قاسم من جيب السروال بعض الأوراق النقدية وأخذ يعدها، ويعد على رؤوس أصابعه بعض المشتريات. الساعة والأسلاك النحاسية والعبوات الناسفة. فكر في طول الأسلاك وقال النقود لا تكفي. جاءت القطط وأخذت تتمسح بقدميه وهو لا يُعِيرُهَا أي اهتمام. كان يفكر في أن يُضاعف جهود عمله كي يحصل على قدر كاف من المال.

ظل واقفاً في وسط الباحة. الشمس فوق رأسه وهو ينظر إلى المستطيلات الزليجية دون أن يراها. وفكر في أوراق الجرائد.

سمع الصوت.

المرأة ناحت.

المرأة الأخرى غردت ثم حاولت أن تطير.

امرأة شتمت.

امرأة حكت عن الشيطان الذي دخل جسدها ولم يخرج. قالت دخله من منخريها ولذلك فهي نفثت الدخان والنار والحجارة والأكاذيب، تنفث الريح وأحاجي الليالي المطيرة، وصوت المؤذن، والدموع، والضحكة البكائية وصوت الذي قال لها وما رأته وهو يسير فوق ماء البحر كأنه يسير على الأرض دون أن يغرق.

واقف في وسط الساحة يسمع بعض الأشياء من غرفة النساء ويفكر في أشياء أخرى. ها هو صوت النساء. العَرَّابُ مدعو إلى غرفتهن. صليل السلاسل. الصراخ. الشتم. الحكايا. الوجوه المرتعبة. النظرات الساهمة إلى مكان ما عند السقف. الصمت. الإنحناءة. الأقاويل. والصليل هو الصوت. الصليل والحركات التي تَخُضُّ في الفراغ كأنها تريد أن تخرج من المكان وتقترب. لحظة القرب قاسية، جريحة والأجساد تريد أن تلتقي في شبق اللحظة أو دمها أو في الضحكة ولكن السلاسل لا تريد. لكلٍّ مكانه. هذا مكاني. أتطاول والمسافة تقصر. مسافتي هنا. ضحكتي هنا ويمكن أن تخترق الشتائم والشهيق وحركات العراك المكتوفة وموت الكلمات. المسافة تقتلني وأنا عارية. نسيت لون آخر قميص ارتديته، ولعله كان رمادياً أو أزرق. كنت قد مزقته قبل أن يتهرأ على جسدي. ضاقت أنفاسي حين رأيت عيونهن أول

مرة، وشممت الرائحة. ثم تعودت رائحة جسدي الحمضية الممزوجة بتعب الليالي والأيام، وبصراخ وضحكات وشتائم لا تنتهي إلا حينما يأتي «الشاف» وينظر إلى الأثداء وشعور العانات ليفتح ذراعيه في الهواء ويقول ساعة الصداع انتهت، ولا يقترب. يظل واقفاً قرب الباب والمرأة التي مكانها قريب من الباب تمطط عظامها العجفاء وتحاول أن تصطاده من رجله كي تأتي به إلى مكانها وتبوسه أو تفعل به شيئاً ما. تصير عنكبوتاً وتحاول أن توقعه بين خيوطها وهو لا يقترب. هو يصرخ ونحن نسكت. وفي بعض الأيام يقول لنا، ونقول له. كلنا نريد أن نقول وهو لا يسمع إلا لواحدة. تلك الواحدة هي التي أعجبته في هذا النهار، وأنا لم أعجبه ولو مرة واحدة. اسمه قاسم ولا يعرف كيف يقسم نفسه بيننا. مجنون.

يومي ضاع.
يومي أزرق.
نهاري غيمة رائحتها عرق حامض.
أنا ضعت.

هذا موتي. لكني سأكسر السلاسل وأقتحم أجساد نساء هذه الغرفة. أنا هنا في الزاوية. الوتد منغرز في الحائط داخل كتلة إسمنتية. والسلسلة تمتد إلى القدمين. لليدين حريتهما وللرجلين حدود المسافة، وأنا هنا. حمقاء؟ حاشاكم. أنا الورد والزهر، أيامي ربيع أخضر. من الغابة جئت. كنت سارحة بين الشجر والوديان، وشفت الدم والسما حمرا. عرفت نهاري. ها الشمعة.

أشعلوها. الشمعة والحناء والتمر، وأنا وردة عطشانة. ها العبيد والسيوف والمكاحل. جاءت الحرب. أشعلوا الشمعة. الليل والدم والرصاصة في القلب. أنا بكيت، ولكن ضحكت، وقلت لهم مات، أعطوه السم في الحليب وشربه ومات. عيشة صاحبتي هي قالت لي. قلت لها يا عيشة يكفيك من الرجال. رجل واحد يكفي، وهي قالت لي وأنا ضحكت وهي ضحكت حتى متنا من الضحك.

أنا امرأة زينة، روحي أعطاها حمو إلى عيشة، وقال لها خذي هذه المرأة، وأنيميها في حضنك، وإياك أن يراها رجل غيري، وهما متخاصمان. هو من حزب وهي من حزب آخر. وعيشة امرأة صاحبتي. شعر مسبسب وخدان نحاسيان، والسؤة عارية. لا، ليس لها ذيل، ليست كالبغلة أو الحمارة. ثوبها أصفر. تحب الأصفر. الأصفر هو روحها، وأنا روحي صفراء. هي رأت روحي في البرزخ وقالت لي. هل كل الدنيا صفراء؟ في هذا الصباح أصبحت السماء صفراء، وأنا لم أر السماء منذ أن أدخلوني إلى هذه الغرفة، ولكن لماذا لا تكون السماء صفراء في هذا الصباح؟ حتى قاسم أطل علينا بوجه أصفر، وقلت له أعطني اصفرار وجهك كي أجعل منه ثوباً يغطي جسدي وهو لم يسمعني وسط الصراخ. هل الموت أصفر؟ أريد أن يكون كفني أصفر. لن أموت قبل أن أغني. أريد أن أغني وصوتي أبح. صوتي صار أصفر، وحنيني إلى السماء والشجر والدروب، ودموعي، وكل صور التلفزيون، والشغالات الواقفات على الأرصفة،

والمقاهي، وازدحام الحافلات، والريح والماء والتراب، كلها صارت صفراء وهذا هو لوني. والمرأة الصفراء تلد أولاداً صُفْراً وتتزوج رجلاً أصفر، وأنا لا رجل لي. طلقته لأنه لم يكن أصفر. طلقته وتزوجت عيشة قنديشة. وعيشة جاءت وقالت لي طلع النهار. بكت واشتكت، وقالت ستقتل حمو قيوم، قالت أنا سأقتله، هو في واد وأنا في واد. أبحث عنه وحين أجده سأقتله، وهو يبحث عني كي يقتلني. أنا أخذت معي كل النساء وهو أخذ معه كل الرجال. أنا أحارب بالنار والدم والدموع والضحكة والصرع كل رجاله. من هؤلاء؟ رجاله؟ إياك أن يكون قاسم من أصحاب حمو قيوم. معي نسائي، ومعي الأصفر، وستأتيكم لالة ميرة ولالة مليكة، وكل جاراتي وصاحباتي في حرب كل الرجال الذين يبحثون عنا في البحر والمتاهات الظلامية بين الدروب أو تحت الماء، في الصحراء أو فوق سطوح المنازل، في الحمام، في الريح وفي كل مكان.

أنا النار.
أنا الحرب التي لا تحارب.
أنا عيشة قنديشة،
صاحبة كل النساء.
ها لوني.
ها ناري.

ها الضحكة والدموع، ودم الطمث، والجري في النهر وراء

الماء في الماء مع الماء أنا حوتة والخرق ممزقة والشعر مسبسب لوني أصفر أنا عيشة قنديشة .

لست امرأة أنا جرح . عينان تريان كل هذه الجدران المتضامة في لحظة عناق وتنهار العينان . كذب . رائحة . خمر . شممت رائحة الخمر من فم النصراني وهو يقترب مني . في البداية رأيت في يده الصنارة ورأيت وجهه على صفحة الماء . كنت أسير مع مائي ورأيت الصنارة والخيط والقصبة ووجه النصراني المنعكس على صفحة الماء ، وحين أطل وجهي تقابل مع وجهه ، كان شعري مبللاً بالماء وخداي نحاسيتين ، وشممت رائحة الخمر من فمه وهو يصطاد . قلت اصطاده واختفيت وراء عيدان القصب . كان النصراني يشوي سمك البوري على ضفة وادي الجواهر ، وامرأته تضحك وتقول له هل سكرت إلى هذا الحد؟ كيف ترى في ماء النهر وجه امرأة؟ يشم رائحة شواء السمك ويشرب . يطل على صفحة الماء من حين لآخر . وأنا أخذته معي إلى قاع النهر . غسلت جسده وباسمته . قلت له أنت حبيبي ، ومشينا في دروب الماء . دخلت به تحت القناطر ، واخترقنا الدروب السفلى للماء . هو يختنق وأنا أقوده وأسبح بجناحي . أصعد به من لحظة لأخرى كي ينتفس ، وأُسَوِّي قبعته على رأسه ، وأباسمه كي لا يخاف . يتمسك بجسدي وهو يرتعش . يحيط وسطي بساقيه ويحاول أن يفرح بالماء كأطفال التُّرَعِ والبحيرات الصغيرة . أبوسه ولا يبوسني . وأنا ضجرت منه . قلت أهديه لوني الأصفر وهو لم يرد . وقلت أغرقه في ماء الدروب السفلى حتى يتناثر وتتوزعه المجاري

ولن يرى جسده أحد. عاد إليَّ اصفراري. وها رائحة الخمر التي كانت في فمه تبددت، وهو الآن يفتح فمه ولا يتنفس. والقبعة وحدها تدفقت مع الماء حتى صعدتْ في نافورة ماء وسط دار فاسية حولها أشجار البرتقال. والقبعة النصرانية رآها الرجل الفاسي، ونظر إلى المرأة الفاسية وقال لها من كان هنا؟ وأنا أغراني الرجل الفاسي، وأنا من أنا؟ عيشة قنديشة؟ الدموع أو الضحكة؟ قبض الريح؟ عين تصير قطرة ماء؟ أنا أنتن. أنا أنتن.

قالتها المرأة الجالسة في الزاوية وهي تحكي عن أصفرها الذي ضاع منها منذ أن جاؤا بها إلى الضريح وأسكنوها في غرفة النساء. قالتها وسكتت. قررت ألاَّ تتكلم بعد الآن، أن تظل ساكتة إلى أن يكفنوها بكفن أصفر.

السلاسل والصليل.
المرأة قالت،

وقاسم سمع. كان يسمع ويفكر في بعض أشيائه الخاصة، حين جاء السي الهاشمي ووقف وسط الساحة يفكر في أشيائه الخاصة هو الآخر. قال السي الهاشمي:
ـ ما هذا الصراخ؟

رد عليه قاسم وهو ينظر جهة الألواح الرخامية البيضاء، المسندة إلى الحائط:

ـ لا أعرف.
ـ أسكتهن يا قاسم.

ـ وأنا من يسكتني؟

ـ مالك؟

ـ رأسي تضج.

ـ أنس الآن. هيا أسكت هذا الصراخ.

ـ أنت المقدم. أسكتهن أنت.

ـ وأنت؟

ـ أنا عابر سبيل. طيوري وقططي على راحة اليد، وفوق الصدر.

ـ أعرف. أريد أن تسكتهن حتى نستطيع أن نتحدث في هدوء.

ـ نتحدث في أي شيء؟

ـ لا أستطيع أن أقول لك وسط هذا الصراخ.

ـ قل، ودع النساء يصرخن.

ـ ليس الآن. ليس الآن.

السي الهاشمي يقف بين باب القبة وباب الممر المؤدي إلى غرفة قاسم. وفي نهاية الممر الطويل المظلم تتقابل غرفتا النساء والرجال. يتجاوبون. أصوات تتداخل. والسي الهاشمي يداري عرجه وهو واقف. يتكيء على قدم واحدة والعصا في يده. نظارتاه سميكتان، وهو يسمع أكثر مما يرى، ولذلك يكاد لا يعرف وجه قاسم، يسمع الصوت ويعرفه، وإذا لم يسمع صوته يقول من هنا، ويقول له قاسم أنا. يحدث هذا في النهار، وفي الليل لا يخرج السي الهاشمي من غرفته، يلازم زوجته وبناته اللواتي يدرسن في

المدارس. زوجته لا تخرج من الغرفة. تستحم هناك وتفعل كل شيء، والبنات يخجلن من دخول الباب الكبير للضريح وهن يرتدين المريلات المدرسية ويتأبطن المحافظ. صديقاتهن لا يأتين إليهن. لا أحد يأتي لزيارة العائلة. يقولون أنتم تسكنون فوق القبور، من يشرب شايكم أو يبيت معكم في غرف الموتى التي تسكنونها؟ الموتى ينهضون. يتكلمون. وربما يشربون الماء من الخابية، أو يتحركون كأرواح صغيرة لا مرئية بين ثنايا السقف والجدران. هل تسمعون كلام الموتى؟ كيف نشرب شايكم من نفس الكاس التي يشربون منها؟ تصير الروح هَالَةً صغيرة في فضاء الغرفة، ترى وتسمع وتتذكر، تقول ولا أحد يراها. لن نشرب شايكم فهو شاي الموتى.

مئات القبور في الضريح. ورائحة الطبيخ. والسي الهاشمي تزوج وأنجب بناته هنا. والمجانين يأتي إليهم أهاليهم للزيارة بعد أن استراحوا منهم. يدفعون النقود للسي الهاشمي وهو يعطيهم الطعام، يستمعون إلى شكواه متعجلين الذهاب، وهو يتأفف، ويقول لا أستطيع أن أقترب لتنظيف أماكن جلوسهم. تعالوا إذا شئتم ونظفوها. لا بد من إخراجهم جميعاً من الغرفة، وكتافهم بالحبال قبل كل شيء، وهذا يحتاج إلى عشرات الرجال. وأنا لا أسمح للرجال بدخول غرفة النساء. حرام. الرجل يرى فخذي المرأة مفتوحتين، وهي تدخل يدها بينهما وتضحك أو تبكي؟ حرام. الرجل لا يجب أن يرى هذا. والطعام، أنا آتي بالصحن وأضعه على الأرض، بعيداً، لا أقترب. أدفع الصحن بالعصا حتى

يصل إلى المكان الذي تتلقفه فيه المرأة. أحياناً يضربنني بالصحون. والرجال يفعلون نفس الشيء. الجنون واحد. ومن الأحسن أن تأخذوها من هنا. إذا كانت لها بنت متزوجة فليصبر زوجها على المكتوب. حماته على كل حال. إذا كانت لهم غرفة صغيرة فوق السطح فليحبسوها فيها حتى تموت. هل أنت أختها أو جارتها؟ هل هي بنتك؟ من الأحسن أن تأخذوها من هنا.

قاسم والسي الهاشمي يتناظران.

- اسكتهن.
- لا أستطيع الآن.
- لماذا؟
- مشغول.
- مشغول بماذا؟
- أفكر. أدخل أنت وأسكتهن.
- فيم تفكر؟
- في بعض الأمور.
- ما هي؟
- لن أقول لك.
- وأنا أريد أن أقول لك بعض الأشياء.
- حول ماذا؟
- حول الشرفاء.
- ليس الآن. دعني فأنا أفكر.

ارتفع صليل السلاسل. خطا قاسم نحو الممر ووقف بين

الغرفتين. صرخ صرخته وقال سآتي بالنار. كلهم قالوا لا . وقال ها الشمس والسماء، الليلة ستكون قمراء، وأنتم قريبون من الجبل، والجبل قريب من السماء ومن النجوم، وصرخ. سكتوا جميعاً، وعاد إلى غرفته ليمدد جسده فوق رفات الجار الذي لا يعرفه.

في الصباح خرج قاسم،
رأى الشمس والظل وألواح الرخام.
الحرف قال،
هذا صباح الحرف.
قل أيها الإزميل،
ها نحن أنا وإياك سنبدأ رحلة طويلة شاقة،
فهل شحذت حدك،
وهل شددت عزمك على اختراق البياض؟
ها ساعدي. انظر.
سنكتب كل هذه الألواح،
في صباح الحروف هذا.

جاء بعض الرجال وأخذوا شواهد قبورهم، وتأخر آخرون. قالوا الميت لا ينتظر، وها هم يتأخرون في حيازة شاهدة القبر. وقاسم هَدَّ ساعده من أجل أن يفرغ من كتابة كل الشواهد التي طلبها بعض الناس. يريد أن يحصل على النقود، ومشاريعه لا تنتظر. كل يكثر من الخروج والدخول. يراه السي الهاشمي وهو يعود ببعض الأشياء الثقيلة وقد أخفاها في أكياس من الخيش، ويقول مجنون. داعبه مرة، وبفضول غريزي، يريد أن يعرف ما

وراءه، وقال له لم أعد أراك تشتري للقطط اللحم من عند الجزار. لم يرد قاسم، وحمل كيسه إلى الغرفة التي فيها ينام. وكان لا ينام. يفكر في مسافة الأسلاك النحاسية، ويجرب منبه الساعة الكبيرة التي اشتراها من حين لآخر. وحين يرن الجرس يرتفع لغط الغرفتين ولا يستطيع أن يترك شغله ويخرج لإسكات الرجال والنساء. يتركهم على حالهم وهو يلف أسلاك النحاس ويقيسها بذراعه.

وها هو قاسم يضع الخطط، ولا ينام، وفي الصباح يظل يحفر الحروف على الشواهد، ويستعجل مجيء أصحابها كي ينقدوه أجر عمله. في الليل يشعل الشمعة، ويرتب بعض الأشياء فوق القبور الأربعة التي ترسم الخطوط الزليجية حدودها داخل الغرفة الصغيرة. يتذكر شيئاً من حرب الأدغال، ثم يستحضر خبرة الذاكرة. وحين يتيه بعيداً، ويستحضر الرفاق وبعض التفاصيل الصغيرة، يضم أصابعه إلى جُمَاعِ يده ويقول لذاكرته توقفي عند هذا الحد، فأنا لا أريد أن أتيه، أريد فقط أن أتذكر بعض الأشياء التي لها علاقة بالخطة. خطتي أنا قال. هذه خطط قاسم الورداني.

جاء بعض الشرفاء وأخذوا شواهد قبور موتاهم. وقاسم أصبح يأخذ أوراق النقد ويُخرج أخرى من جيبه ليعدها جميعاً، ويبتسم،. الصدر عار، وكل الحروف، والطيور والثعابين والقطط اختفت ألوانها ولم تعد مرسومة على الصدر. يخطو فوق القبور ويقول لنفسه. تقترب منه القطط ولا يقول لها، يخاف أن

تنشر أخباره فوق سطوح المنازل. ينظر إلى القطط متوجساً ويطلب منها أن تنتشر في الأرض، فحاميها وراعيها يغادر هذا المكان ولن يعود إليه مرة أخرى. والقطط تضحك، وتقول له لا تستطيع. هنا ستبقى جنب هذه القبور. لن تغادر الضريح، ونريدك أن تبقى هنا. تتسلق الأسوار وتطل عليه من فوقها وهي تضحك. لا يرفع عينيه ليراها. شغلته الحروف ونسي كل شيء. شغلته الخطط ونسي الحروف. هذا هو قاسم.

أصبح يُكثر من الخروج والدخول وفي يده بعض الأشياء الملفوفة في أوراق الجرائد. تقترب منها القطط وتشم ثم تبتعد. ويدخل غرفته كي يبدأ جلسة هادئة مع كأس من الشاي بالنعناع. ومن حين لآخر يُجرب منبه الساعة هل يشتغل. يرن الجرس ويرتفع صليل السلاسل وترتفع ضحكات قاسم.

هو الذي قال.
كل هذه القبور لم تقل.
والشرفاء لم يقولوا.
الحروف قالت له.
والسي الهاشمي لا يستطيع أن يقول سوى ما قال.
الفتوح بن دوناس قال بيده الملطخة بالدم.
عيشة قنديشة قالت.

وهو الذي قال كلامه السري لنفسه، وما زال يقول. يحاول أن يمسك باللحظة قبل أن تنفلت وتضيع في سَرَيَان الزمن. لا بد

من حادث يُنسي الشرفاء تشوه الوجوه. ستأتي النار بدخانها الأسود الذي يغطي كل شيء. النار ناري. كل الرصاصات خمدت، ولا بد من التفجير. أسميه الزلزال أو الطوفان؟ أسميه النقمة؟ التوحش بعد أُلْفَةِ الأشياء في قساوتها طوال زمن هو ذلك الإمكان القائم منذ حرب الريف والانتفاضات التي تم إرجاؤها إلى زمن آخر. طوفان زلزال. زلزال وبعده يأتي الطوفان، ومن داخل الماء تظهر حقول القمح وأشجار الزيتون، وتمحي خرائط المِلْكية. أنسوا وجوهكم وفكروا في الأرض التي يغمرها الماء، وفي الضريح الذي يغمره الماء، كما يغمر الماء كل هذه الصوامع والدروب وكلام الموتى. قل لي أيها القط الأسود، هل تريد أن تذهب معي في الرحلة؟ سنسير على الأقدام مسافة كيلومترات، مُثْقَلَيْن ببعض الأحمال. هل تساعدني على حمل بعض الكيلوغرامات؟ أنت فحل هذه القطط. قائدها في الرحلة نحو السطوح. وأنا قَوَّيْتُ جسدك باللحم بعد أن غابت قصعة الكسكس. تعال ساعدني. معك الخرائط. أنت قط جوال، تعرف كيف تتسلق الأسوار والحيطان الإسمنتية. أشحذ مخالبك وتعال. كُنْ جاهزاً في اللحظة المناسبة، وإياك أن تقول شيئاً للقطط، أو للسي الهاشمي. إذا قلت سأخترق رأسك بالإزميل. لا تنس من معي. كل الحيوانات معي، والخرائط، ولحظات من زمن مضى، ومعي الأشياء السرية الأخرى أيها القط الأسود. تعال نحارب الشرفاء.

في ذلك الصباح الربيعي انتشرت أشعة الشمس على كل

الساحة. لمعت قطع الزليج، وأخذت القطط تلطع جنوبها. بعض ألواح الرخام تكسرت، وألواح أخرى مسندة إلى الحائط، بيضاء لم يخطها قاسم بعد. السي الهاشمي واقف قرب باب القبة، يستند إلى إحدى قدميه، ويمسك بالعصا في اليد. قاسم يخرج من الممر المظلم في هذه اللحظة. هل رآه السي الهاشمي؟ سوى نظارتيه السميكتين وأخرج عينيه من محجريهما.

ـ أنت؟

لم يجبه قاسم، وخطا فوق أرضية القبور.

ـ أهذا هو قاسم؟

قالها السي الهاشمي وهو يراه من الخلف، يحدق بعينيه ويجهدهما على الرؤية. يقول هذا هو ظل قاسم، مخلوق من مخلوقاته، واحد من تجلياته التي تظهر وتختفي. أهذا هو قاسم؟ ولماذا يخرج على هذه الحالة؟ كذبت عيناي. قد يكون قاسم في غرفة القبور، أو ؟يسَكِّنُ المجانين بمقدرته العجيبة، وهذا قاسم آخر. صاح السي الهاشمي:

ـ قاسم.

لم يرد.

ـ أهو أنت؟

كان يخطو ولا يستدير إلى الخلف.

ـ تعال قل لي، أو تعال أقول لك.

ـ . . . . . .

ـ قاسم.

يرتدي معطفاً طويلاً من ورق الجرائد، ذا كمين طويلين. يسير بخطى بطيئة. على رأسه قبعة في طول متر ونصف، مرفوعة في الفراغ. حروف الجرائد الكبيرة والصغيرة تتوزع على اللباس والقبعة. العناوين. الأعمدة. الصور والرسوم الكاريكاتيرية. المداد الأسود بَادٍ، يتشكل في حروف العناوين كتابةً مقروءة، وفي بعض السطور المكسورة يبدو خربشةَ أو خُدُوشاً على الصفحة. أية صفحة؟ نقول على الثوب الذي يرتديه قاسم، فقد صارت الصفحات معطفاً يرتديه. لم يقرأ هذه الجرائد. اختار منها قماشه الخاص. والحروف مالت، تهدمت وانهارت نحو الأسفل، تصاعدت سامقة مع السطور المطبعية التي ظلت تحترم المسافة القائمة بينها، وهي تسير كلها نحو الصعود أو الإنحدار. وها هو الإصفرار. الأصفر الزعفراني. ورق الجرائد أصفر، تفوح منه رائحة الزعفران. تنبسط الأرضية الصفراء لتحتلها السطور والعناوين الكبيرة، وبعض الصور التي تظهر بالأصفر والأسود. كتابات مائلة وأخرى تنحدر على الظهر نحو مكان الفخذين، كما يمكن أن نتوقع رؤيتهما من الخلف، ومن موقع السي الهاشمي، الواقع عند باب القبة، لو كنا هناك. كتابة أخرى مقلوبة. في وسط الظهر يظهر مكان الخياطة حيث تلتقي الكتابة بالكتابة. ها اللُّغَتَانِ تتجاوران: العربية والفرنسية. تتصاهران وتغمز إحداهما للأخرى قبل أن تبوح لها ببعض الأشياء، رغم الأخبار المتضاربة التي تعبر عنها كل واحدة منهما. وها هي العناوين البارزة، وصور بعض رؤساء الدول: بورقيبة، ريغان، الخميني بعينيه

الصقراوتين، وصور مصفحات ومشاهد حربية. سطور القبعة الطويلة تنحدر نحو الرقبة، وتتصل عند مكان الخياطة بأعلى الكتفين.

وكان قاسم قد قَوَّى أوراق الجرائد وأَلْصَقَهَا إلى بعضها باللصق، حتى ظهرت الكتابة تحت الكتابة، وانفضحت سطور أخرى صاعدة تحت تلك المائلة، وتبين من تحت العنوان ذوي الحروف الكبيرة أكثر من سطر بالحروف الصغيرة وهو مضبب في سواده الأصفر الزعفراني الثخين، لا يقرأ، يشكل هالة كتابة كأنها وقعت تحت طائلة المحو أو التضبيب المقصود. وقاسم لم يقصد إلى كل هذه الأشياء. كان يريد أن يقوي أوراق الجرائد حتى لا يتفتق اللباس. قام بتفصيل المعطف بأجزائه الأمامية والخلفية، والكمين، ثم خاطها برتق متقن بعد أن طلاها بالزعفران، وبدأ في تفصيل القبعة. جعلها طويلة كتلك التي يضعها الطُّهَاةُ على رؤوسهم، وطلاها هي الأخرى بالزعفران. لم يبال بالحروف، وبتسامق الكتابة على الكتابة. كان يريد للمعطف أن يتشكل من أوراق الجرائد، ولم تهمه الكتابة التي تنفلق من صفرة الزعفران. عبق مدادها كان يتلاشى، تغمره الرائحة الأخرى بالإصفرار والموت، وبعض لحظات الشرود.

لماذا هذا الإصفرار؟

أسألوا قاسم فربما يقول لكم إن كل جرائد هذا الصباح قد صدرت باللون الأصفر، وبالمداد الأصفر، وصعدت بكل أخبارها

من مقبرة القبب. ولربما قال لكم أنا رجل أصفر، مِنَ الأصفر أُخْرِجُ كل ألواني. كل الألوان صفراء، ولا علاقة للألوان الإنتخابية بهذه الأمور، ولا لعيشة قنديشة، أو لاَلَّة ميرة ولاَلَّة مليكة، وهي من أسماء الجن والله أعلم.

والبَتْرُ الذي أحدثته ضربة المقص وهي تَحُزُّ الصفحة من الوسط، وتترك للكلام المكتوب امتدادات محذوفة، يجعل القاريء الذي يقترب من معطف قاسم يحتار ويشعر بإغراء ذلك الحذف، يتشبث بما لم يقرأه أكثر من رغبته في قراءة السطور البادية أمامه. هذا إذا كان هناك قارىء عابر وسط الطريق، يقتفي خطى قاسم وهو يسير. مع أن الرجل لم يغادر الضريح بعد. نحن عَطَّلْنَا الزمن لحظة لوصف المعطف والقبعة ولا شيء أكثر من ذلك، كما تُعطل الكاميرا تدفق الصور. وإذا شئتم، فها هي السطور تستدير مائلة مع القبعة المرفوعة في الفراغ، تميل ولا يلتقي السطر بالسطر عند مكان الخياطة. وبعض الأعمدة تنتهي عند قمة القبعة الأسطوانية، إلى ما يشبه الرأس الحاد لخذروف، تتلاشى عنده بقية الحروف ويغيب امتدادها في رائحة الزعفران.

لم يكن قاسم يمحو الحروف. كان يُضمخها بالزعفران ويريد لها أن تنشر عَبَقَهَا الخاص، وكأنها حين تتلاشى عند طرف النهاية، يجعلها تبدأ من طرف بداية أخرى، وهي تتوزع على مساحة المعطف والقبعة، صاعدة هابطة تتوسطها الصور والرسوم الكاريكاتيرية، وَتَحَاوُرُ اللغات، والأعمدة والفراغات الفاصلة بين كتابة وأخرى.

ألهذا كان قاسم يغيب في بعض الليالي؟ من علمه الخياطة وتفصيل المعاطف والقبعات؟

ثوبه ورق الجرائد.

حروفه المحفورة على شواهد القبور استحالت إلى هيروغليفيات يرتديها على الجسد.

أيستطيع هذا النَّقَّاشُ أن يخرج إلى الطرقات هكذا، ملفوفاً وسط اصفرار ثوبه الورقي المُنْطَبِعِ بالكتابات؟

ها هو يخرج. الآن نلاحقه وهو يخرج، بعد أن انتهت لحظة الوصف، والسي الهاشمي يراه من الخلف ويحدق في قبعته المرفوعة عالياً، فوق الرأس، والخطى بطيئة مثقلة بشيء يحمله قاسم. سطول، قفة الدوم، كبس من الخيش. يحمل كل تلك الأشياء بيديه ويمضي متثاقلاً. لم يُدِرْ وجهه. لم ينظر جهة القبة أو حائط المِزْوَلَة، ولم يودع القطط. نزل الأدراج الثلاثة ومشى وسط الدروب.

كل الناس يرون. يتوقفون مدهوشين ويقولون مجنون، أو لا يقولون أي شيء. يقولون أوراق جرائد صفراء؟ والرجل ماله؟ مجنون. تقول الجارة للجارة وتُوقف الأم طفلتها كي ترى وتتعطل حركةُ الخَضَّارِ وهو يزن الخضر ويستغل السماك لحظة اندهاش الزبون كي يَدُسَّ له سمكاً نتناً ويتوقف المقرىء المتسول بالتلاوة عن التلاوة والنجار لا يطرق المسمار وعيون الحافلة كلها تطل ولا تنقطع الضحكات.

العينان وشعر اللحية النابت.
الأنف بارز.
النظرات تتجه نحو الأمام.
الخطى واثقة رغم نَوْئِهَا بالثقل.

خرج قاسم من باب الفتوح، ومضى نحو الخلاء. وقال السي الهاشمي لامرأته وقالت له، وفي قولهما ظهر غياب قاسم. منذ أيام لم يأت. قالت له هل قلت لقاسم؟ وقال لها لم أقل له. كنت سأقول له وقال لي مشغول يفكر، وليس عنده وقت ليسمع كلامي. والرجل غاب، خرج ولم يعد. رأيته يخرج وهو يرتدي لباساً من ورق الجرائد، ويحمل بعض الأشياء. لامَتْهُ المرأة لكونه لم يقل لقاسم، فهو من كان سيصنع خطة الوصول إلى العقارات والأرض التي على السد. دمعت عينا المرأة وقالت أريد الأرض. الماء والشجر وحقول القمح. جاءت الفرصة وأنت ضيعتها. ضيعها غياب قاسم. كان سيقول لهم وساعتها يعطونك الأرض. اذهب وأبحث عنه حتى يعود ويقول لهم. سيأتون ليسألوا عنه. ماذا ستقول لهم؟ قل لهم أي شيء حتى نأخذ الأرض وأخرج أنا وأولادي من هذه المقبرة. البنات ولدن فوق القبور، وعشن فوقها، فهل تريدهن أن يخرجن عروسات من هذا الضريح؟ اسمع. الشرفاء يريدون الولاية، وأنا أريد الأرض. اختر بيننا. لعلك تريد أن تموت هنا. يكون قبرك في القبب، أو في أية مقبرة أخرى. لا تحلم بقبر زليجي من هذه القبور. وأنا أريد أن أعيش، وأرى الماء والشجر في الأرض التي على السد.

سكت السي الهاشمي ولم يقل. ثم قال وقالت واستمر القول بينهما حتى جاء الخبر وعرفوه.

قبل أيام نسيت المدينة تَشَوُّهَ الوجوه. الجارة قالت للجارة عن الرجل الذي طاف كل المدينة يرتدي أوراق الجرائد، والبقال قال للبقال، والجزار قال، والمؤذن قال في باحة المسجد، ولالة ميمونة قالت للمؤذن وضحكت وهي ترخي سالفها الأصفر، وسيد العثماني قال للالة رقية، ونعيمة قالت لمنير وهو لم يسمع، وظل يبتسم ابتسامته التي اعتادها طويلاً، وسمك الشابل والقُبَّرَاتُ والضفادع وطائر الخطيف الذي يحط على أسلاك الكهرباء، وسكارى الحانات، والفتوح بن دوناس قال لأخيه عجيسة، واللافتة المكتوبة فوق باب السجن قالت، وبا إبراهيم، وشوارع الرباط ونسمة البحر الليلية، والمرأة التي من الماء تصعد، وجحيم منير، والنسر والثعبان والقطط وحَدُّ السكين، والدم، وكبش العيد، والمرئيات، والحروف، وسطوح المنازل، والشريف بن الشريف، والموتى، والمجانين قالوا، والقبور الزليجية، وكَيُّ السجائر على الجسد، والسَّوْطُ وكأس القهوة وكأس الشاي، والدموع، والجرائد، وحصار الجدران، وصور المهدي بن بركة، والتراتيل وأغاني الشيخات والوشم، والقبو المظلم، وقصعة الكسكس، ودروب المياه السفلى، والأوراق، ورائحة العطر ذات ليلة، وجرائد اللون الزعفراني، كلها قالت، كلهم قالوا كل شيء وما قيل شيء.

جاء الشرفاء وبكوا. قالوا نُسِفَ السد وضاعت الأرض.

أغرقت المياه كل شيء. وسألوا عن قاسم، وقال السي الهاشمي راح ولم يعد.

وقاسم راح،
طيوره وعيون النساء والأسماك وشم على يديه،
ينتفض جسده وتنتشر الألوان،
ويكون عالم البدء.

تَهَلَّلْ أيها الحرف في سمائي. محوتُ كل الذي حفرتُ على الرخامات البيضاء. حطمتُ الألواح ولم أبدأ بعد كتابة الحرف الأول. ها هي رمال الصحراء، وصفحة السماء، وما النهر، وانتشار الوقت، فهل تحفر أيها الإزميل حروفاً؟

حرفي تَهَلَّلَ وأنا رأيته فوق سماء أيامي.

سين.
لام.
راء.
نون
واو.

أيتها الحروف الهلالية، لن تجدي مكاناً لاحتوائك بعد الآن سوى صدري وراحة اليد. كل الألواح الرخامية إمَّحَتْ، وأنا حطمتها بعد أن سرق حروفَها ليلُ الموتى.
حروف الصهد.
حروف الزمهرير.

حروف الوجد والصرخة الصماء والزلزال الذي صار طوفاناً وحروف الأبجديات التي تَجَنَّسَتْ في هوية ضاع مبناها ومعناها.

لَمْلِمِي حروفك أيتها الحروف، وتعالي نخرج إلى الناس ونتحاور بلغة اليومي.

هل تنفضين أيتها الحروف غبار التاريخ عن أكتافك،
تستحمين في ماء الطوفان،
تعشقين الأشياء قبل الأسْماء،
تنهضين من الإنحناءة،
وتصير لك أجنحة وزعانفُ وألسنةُ كل اللغات؟

تعاليْ نبدأ من مكان آخر يا حروفي، بعد أن كسرنا أُلواح شواهد القبور الرخامية، فَتَهَلَّلِي فوق سمائي، إنني أراك محفورةً بغير إزميل، على راحة اليد.

«وَقَّعْتُهَا ذات لا زمن،
ضد اليوم والشهر والسنة،
في الريح وعصف الذاكرة ومقاومة الانحدار نحو المغيب»

للكاتـــب

- أوصال الشجر المقطوعـة (قصص)، دار النشـر المغـربية، الدار البيضاء، ١٩٧٥.
- أبراج المدينة (رواية)، منشورات اتحاد كتـاب المغـرب بتعاون مع اتحاد الأدبـاء في العـراق، دار آفـاق عربية، ١٩٨١.
- النداء بالأسماء (قصص)، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨٧.
- رحيل البحـــر (رواية)، المؤسســـة العـــربية للدراســات والنشر، سمير، ١٩٨٣.
- يوم الرماد (رواية) قيد الطبع.
- أيها الرَّائِي (روايتان) قيد الطبع.

تم الطبع بمطابع أفريقيا الشرق

في شهر دسمبر 1999

159. مكرر شارع يعقوب المنصور - الدار البيضاء

الهاتف : 25.95.04 / 25.98.13 الفاكس : 44.00.80

أفريقيا الشرق
159 مكرر، شارع يعقوب المنصور
الدار البيضاء
25.95.04
25.98.13